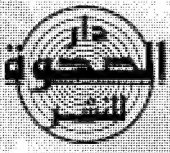


سرتاخر

العرب

المسلمين



محمد الغزالي

سرتأخرالعرب
والمسلمين

محمد الغزالي

سرتأخر العرب والمسلمين

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يستطيع الأتقياء أن ينقذوا المدنية الحديثة ، وأن يكشفوا المعاييب التي تخدش قدرها ... أو تسقط مكانتها ! فهل يجديهم هذا الموقف في جبر كسورهم وإزالة تخلفهم ؟

إن الفقير يستطيع أن يهجو الغنى وأن يفضح سورة الطغيان في مسلكه ! فهل ذلك نافعه ؟ وهل ذلك الهجاء يسدّ جوعته ويستر عورته ؟

من أمد بعيد أحسست أننا مصابون من داخلنا ، وأن موارثنا الفكرية لاتنبع من ديننا ، بل من تعاليم دخيلة على هذا الدين ...

ومن أمد بعيد أحسست أن هناك ازورارا عن توجيهات الإسلام الحاسمة في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية تمثيا مع أهواء فرد من الأفراد ، أو طبيعة جنس من الأجناس ، وأن العبادات فقدت روحها ، وأصبحت رسوما ميتة ، وأن الأخلاق سقطت عن عرشها ، وأمسى تعامل الناس وفق عرائزهم ، وأن الصراع العالمى ليس بين الإسلام وغيره من أهواء الشر ! وإنما هو صراع بين تطبيقات غيبة للإسلام ومسالك بشرية يقظة جريئة ..

إن أهل الكتاب الأقدمين حرفوا الكلم عن مواضعه على نحو ما ، ونحس - على امتداد عدة قرون - نغلف الوحي بأهوائنا حتى ضاع بريقه ، وأكاد أقول لسكان القارات : إن ما ترون في شئوننا ليس ما أنزل الله من كتاب ولا ما قدم رسوله من أسوة ، إن ما ترون هو عوج أمة سبت مالدتها ومضت مع هواها ..

وقد بلغ من ضراوة الحجب التي رانت على بصائرنا أنها تقاوم من يريد العودة بها إلى طريق الله ، أنها تتعصب لموارثها من تقاليد الانحراف والعجز ، وتتأبى على عناصر الحق والرشد ، التي عرفها سلفها فكانوا الأمة الأولى في العالم .

وأنا أعرف صدى هذه الصيحة في نفوس كثيرة ! .
سيقول كثيرون : رجل متدين يريد العودة بنا إلى المسجد ! أو يتحدثنا عن
الروحانيات والدار الآخرة ..!

وما أنكر صلتى بالمسجد ولاتعلق قلبي به ! وما أنكر شعورى بالدار الآخرة ،
وضرورة الإعداد لها !

إن إنكار الحقائق ضرب من السفه ، والإيغال في الأوهام لآخر فيه ..
ولكن حديثي في هذا الكتاب عن أغلاط سياسية واقتصادية واجتماعية لها
جذور ضاربة في الماضي البعيد والقريب ..

وقد سبق لى الكلام في هذا الموضوع مثنى وثلاث ، في تفصيل طويل .
بيد أنني هنا لجأت إلى نهج أكثر إفصاحا ، وذلك لأن دعاءة إلى الإسلام
يُخدون شعوبه المشخنة إلى ذات الطريق الذى آذاهم وجرّ عليهم هزائم هائلة .
وقد رأيت أصوات الجهال تعلو ، تساندها قوى شريرة ، وأصوات المصلحين
تخفت لأن أعداء الحق يخشون عواقب صحوة حقيقية للأمة الإسلامية ...
بل قد يكون من أعداء الإسلام أشخاص يلحون فى الانتفاء إليه ، والحديث
عنه !

أتى حديث ؟ حديث يتناول مشكلات موهومة ويتجاهل مشكلات قائمة ،
حديث يزيع الغبار عن الصورة الموجودة ، ولا يعيد تشكيل هذه الصورة وفق ما
للإسلام من ثقافة ذاتية وسياسة قومية .

إننى أعلن أن ولائى الأول والأخير للإسلام ، كما بلغه نبيه ، ونفذه خلفاؤه ،
لا كما فعله الحاكون باسمه ، أو الجاهلون به ، مهما بلغت مزاعمهم .

محمد الغزالي

أين الخلل ... ؟

فرعت لما سمعت قائلاً يقول : إن ألف مليون صيني قدرت الشيوعية على توحيدهم في دولة كبرى على تنأى الديار واتساع الأقطار ، أما الألف مليون مسلم فيبدو أن الإسلام عاجز عن جمع كلمتهم وحشدتهم تحت راية واحدة...!! قلت : ويحك ، أبصر ما تقول .. ! قال : هل ذكرتُ إلا الواقع ؟ فأجبتُه على عجل : لو كانت الشيوعية تجمع لصدت الفجوة بين الصين وروسيا ، أو بين الروس وأوروبا الشرقية التي تعمو لهم راغمة .. ! قال : هناك أسباب عارضة لهذه الجفوة ! قلت : أولى بك أن تلتمس هذه الأعذار للأمة الإسلامية ، بدل أن تتهم الإسلام نفسه بالعجز عن لَمِّ الشمل وتكوين الوحدة الكبرى ... ! وعدتُ إلى نفسى أفكر وأراجع وأتدبر ! إن الأمة الإسلامية تعاني صدوعاً هائلة ، وهى الآن مورعة على أكثر من سبعين قومية ، أو سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة « جوازات السفر » على سواء !! والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عُملة ليس لها رصيد ، وأتباعه يُنال منهم ولا ينالون ويحار عليهم ولا يحيرون ! ودثاب الشرق والعرب تغير عليهم ففترس ما شاءت من القطعان السائبة دون أن يتمعر وحه !! إن إحراج يهوديٍّ واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان ، وحول عداوة السامية ، أما مقتل المئات والألوف من المسلمين في إفريقية وآسيا وأوروبا فالخطب يسير ! وقد يثار بعض اللفظ ثم تُنسى المأساة ، وأول من ينساها المسلمون أنفسهم ... !!! ما سرّ هذا الضياع والشتات ؟ ما وراء هذا التفكك والتبدل ؟

الحق أن الأسباب كثيرة بين سياسية واجتماعية وثقافية ، وأنها بدأت من قديم ، ولكن الكيان الحي قد يغالب الجراثيم الوافدة ويهزمها ، وقد يصاب بها ويتأسك تحت وطأتها ، وربما استطاع العيش زماناً وهو يحس بها ويعالجها بمسكّنات موقوتة . بيد أنه سيقع فريستها آخر الأمر ، مادام لم يتناول لها دواء يجلب العافية ،

ويحسم البلاء .. ! كان المسلمون من مئتي سنة فقط أشد هيبة وأعز نفرا - مع ما تلاحق عليهم من هزائم - كانت الأساطيل الأجنبية لا تمر بالبحر الوسيط إلا بعد أن تستأمن من دوله الإسلامية إذ كان المسلمون يفرضون ضرائب على السفن المارة بشواطئهم ! وسمعت في مجلس مؤرخين وساسة - وأنا بالجزائر - أن جورج واشنطن لما انتصر في حرب الاستقلال واستقرت الأمور للولايات المتحدة ، كتب إلى حاكم الجزائر يومئذ ليطمئن على سلامة السفن الأميركية ! مبدياً مودته .. - وتوجد نسخة بالإنكليزية لهذه الرسائل - كما رفض الجزائريون مهادنة بعض الدول الأوروبية ، برغم توصية الخلافة العثمانية ، وأوقعوا بها هزائم مذلة ... ! كان^(١) ذلك من قرنين اثنين !! أما اليوم ... فالحديث ذو شجون .. والخلافة الإسلامية لم تلق حتفها في حادثة تصادم ، ولم تفقد حياتها عقب اغتيال مفاجيء .. كلا كلا ، كان نظام الخلافة يترنح ترنح السكران الفاقد الوعي ، وكانت الأدواء الفاتكة تسرح في جسد الأمة كلها وتهذ قواها هذاً ومن ثم فإن السلطان عبد المجيد بعد ما وقع في قبضة الإنكليز لم يفعلوا به شيئا ، كان أتفه من أن يؤاخذ ! لقد تركوه لقومه أو لعملائهم الذين زهدوا في الخلافة وآثروا الارتداد ... !! وهكذا تلاشت الدولة الإسلامية الكبرى ، لقد غرقت في دوامة من أخطائها قبل أن تنالها سيوف الأعداء .. !

والبحث عن أسباب الوفاة مطلوب . إن الإسلام ختام الرسالات السماوية ، وتاريخ الأولين في كتابه يحتل أكبر جزء منه ، وذلك لتعرف الأمة الأخيرة لماذا هلكت أمم ونجت أخرى ؟ ويبدو أن المسلمين يقرأون قصص القرآن للتسلية

(١) لعل تفصيل الوقائع يكون مفيداً . ففي يوم السبت ٢١/٢/١٢١٠ الموافق ١٧٩٥/٩/٥ عقدت معاهدة بين « الداي حس » حاكم الجزائر وبين جورج واشنطن رئيس الولايات المتحدة كي يؤم الجزائريون الطرق الحرة للسفن الأمريكية ، وكان الأسطول الجزائري سيد هذه المناطق يومئذ . « الداي حس » هو ناني مسحد « كيشاوة » شكر الله الذي نصره على الأسبان في معركة كثيرة ، وقد فرس عليهم أن يذهب وفد مهم إلى الأستانة كي يلقي الحليعة حاملاً معه حرتين من الماء (!) وذلك لأن القائد الأسباني كان قد هزم المسلمين قبل ذلك ، وحمل معه حرتين من ماء مدينة وهران إلى ملك أسبانيا علامة على أن الصليبيين سوف يرتدون القطر كله فلما اهرموا ، ألزمهم الداي حس بحمل حرتين أخريين ، وتقديمهما إلى حليعة المسلمين رمزاً لاهرامهم أمام المسلمين ! - تارات قديمة حديثة ! وللسا المسئولين عنها ، فمن الوضاعة أن يقدم الرومان من أوروبا هيقاتلوا سباً في مؤنة وتنوت . وفي سوريا ومصر وفي الأناضول والعرب ، ثم يحيى بعدهم أحفادهم المستعمرون الحديدية كروا العدوان بنفسه ثم يقولون في صفاقة : إن الإسلام دين عدوان !! ما أخرجكم أنتم من بلادكم ؟؟ .

ويسمعون أنباء الحضارات المدبرة والأمم الهالكة وكأن الكلام لغيرهم !!
والغريب أنهم سكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهم يؤمنون الخير ! ووقع
منهم ولا يزال يقع اعوجاج خلقى وسياسى يترفع الآخرون عنه ، ومع ذلك
'يحسبون أنفسهم عباد الله المخلصين ... !!

بعض سنن الله الكونية من القرآن

وأريد قبل شرح العلل التي أومأت إليها أن أذكر طائفة من سنن الله الكونية في بقاء الأمم وهلاكها ، فإن القوانين القرآنية في هذا المجال لها دقة القوانين العلمية ، التي تسمح بجرى السفن في البحار ، ودوران الآلات في المصانع ... :

(١) في سورة القصص شرح مستفيض لعواقب الحكم الفردى والاستبداد السياسى ، وشرح آخر لعواقب الطغيان الاقتصادى ، والاعتزاز بالمال العريض ، أوجزه المولى تبارك اسمه في هذه الخلاصة : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا . وَالْعُقُوبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٢) فهل أجدت هذه الخلاصة في محاربة الفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة ؟ أم شاعت هذه وتلك في تاريخنا القريب والبعيد .

(٢) في سورة يوسف ، وفي أطواء فصول مثيرة من الغربة والسجن والإغرار والظلم ، يبرز قانونان جليان ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . والآخر ﴿ لَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾^(٣) الأول نهج خلقى صارم في جدوى الاستقامة ، والثانى الاستناد إلى الله في ارتقاب مستقبل أفضل مهما أظلمت الآفاق في مرأى العين ، فهل تتم تنشئة الشباب على هذه القواعد ؟ أم أن التعلق بالقشور هو ديدنا ؟ .

(٣) بدأت سورة محمد أو سورة القتال بهذه الآية ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ ﴾^(٤) ألا تلمح في هذا المطلع الحاسم أن الإلحاد مهما صحبه من علم مشثوم النهاية وأن الكفار والفتانين مهما بلغ ذكاؤهم لا بد أن يحرّموا من بركات الله ، ويواحها الفشل والدمار ، وأن التعويل إنما يكون على الإيمان والإصلاح ؟

(٤) الرغبة والرغبة أحاسيس مجنونة تلمسها وراء الطمع الجامح والخوف المذلّ فهل يعانى من ذلك إنسان أو شعب يفهم قوله تعالى ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾^(٥) إن اضطراب

(٢) سورة القصص ٨٣

(٣) سورة يوسف ٩٠ ، ٨٧

(٥) سورة فاطر ٢

(٤) سورة محمد ١

الأعصاب ، ومستشفيات الأمراض النفسية ، وحوادث الانتحار تملاً أقطار العرب لنضوب هذه الروحانية وانطلاق الجماهير وراء الماديات لا تدرى سواها فكيف حصّنا أنفسنا من هذه الأوبئة ؟ تدبر هذه الخلاصات المعتصرة من تجارب التاريخ ، ومن حصاد الأمم القائمة والداهية وسل نفسك : كم أفدنا نحن المسلمين من تقرير القرآن لها ؟ تدبر هذه الحكم القرآنية التي تمتل قوانين كونية صارمة ... يقول تعالى في تععيد واحد من هذه القوانين :

٥ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُحَرِّمُونَ ﴾^(٦)

٦ - وتأمل القانون الآخر في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾^(٧)

٧ - وتأمل هذا القانون أيضا: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْحَيُّ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَبِيبِ ﴾^(٨)

٨ - وهذا قانون آخر: ﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾^(٩)

٩ - وقانون آخر يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾^(١٠)

١٠ - وفي قانون آخر يقول القرآن: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا بِعَمَلِ آلِهِمْ عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^(١١)

إن القوانين العشرة السابقة نموذج لما يكفل الحضارات ، ويحصن الأمم . ودراستها حياة ونماء للعقائد والأخلاق ، ومهما كان الوزن لفروع الفقه فهذه الأصول أسبق ، والعكوف عليها أجدى ، ذلك أنها حقائق ، والمقابل لها أباطيل ، أو أنها معروف ، والمقابل لها منكر . أما الاختلاف في كثير من الأحكام الفقهية فلا يعدو أن يكون وجهات نظر قد تكون متساوية الأجر عد من يصوبون كل اجتهاد ، أو متفاوتة الأجر عند من يرون المجتهدين عرضة للخطأ والصواب !! ...

(٨) سورة المائدة ١٠٠

(٧) سورة لرعد ١٠

(٦) سورة يونس ٨١-٨٢

(١١) سورة الأفعال ٥٣

(١٠) سورة السجدة ٢٥

(٩) سورة آل عمران ١٦٠

يقول فقهاء مثلاً : لابد من قراءة فاتحة الكتاب وراء الإمام ، ويقول فقهاء آخرون لاتفوز قراءتها !! ليكن هذا أو ذاك ، وليختر من يشاء ما شاء ، فما يقوم الدين ، أو ينهدم بأحد المذاهبين ، إنما يضيع الدين ، والدنيا معا ، بذهاب الخشوع ، واستحكام الأثرة ، وإطاعة الهوى ، والذهول عن سنن الله الثابتة في استخلاف الصالحين ، وتأديب الجهلة ، وإهالة التراب على ما يفعلون . ويسرنى أن أنقل هنا كلاما للشيخ العلامة محمد رشيد رضا يؤكد هذه الأقوال :

لم يقصّر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة ، كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم ! والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك ، والحث على الاعتبار بها ! ولو عُتُوَ بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام ، وقواعد الكلام ، لأفادوا الأمة بما يحفظ دينها وديناها . وهو ما لا يفنى فيه التوسع في دقائق مسائل النجاسة ، والطهارة ، والسُّلَم ، والإجارة ، فإن العلم بسنن الله تعالى في عبادته لا يعلمه إلا العلم بالله تعالى ، وصفاته ، وأفعاله ، بل هو منه ، أو من طُرُقهِ ووسائله .

وقد فطن لهذا الحكماء من العلماء ، فقال أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المطلوبة - من كتاب العلم في الإحياء - : « أما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء ، فهو العلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وسننه في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ! إن هذا العلم مطلوب لذاته . !! ثم فضّل أبو حامد الغزالي أهل هذا العلم على جميع العلماء من متكلمين ، وفقهاء ! وأيده في ذلك العزيز عبد السلام ، إذ استفتى فيه ، فأفتى بصحته ! وبين الغزالي أن هذا العلم هو الذي امتاز به عظماء الصحابة - رضى الله عنهم ، وأنه الذي عناه عبد الله بن مسعود لما قال في موت عمر بن الخطاب : مات تسعة أعشار العلم ... ورواية أبي خيثمة : « إني لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم !! » أقول : كان عمر رضى الله عنه أبصر الناس بطبائع الشعوب ، وأسباب ازدهارها ، واندثارها ، وكيف تبني الدول ، وتصان ، وتنتصر ، وتؤدى رسالتها .. وسياسته في المال والحكم أمانة وعى عميق بالإسلام وغاياته ... لقد بدأ المسلمون رسالتهم العالمية بداية حسنة ، فكانوا - أمة ودولة - نموذجاً حسناً لتعاليم الإسلام ، واستفادوا استفادة صادقة من تاريخ الأمم الأولى . جاء

الخليفة الأول وليد شورى حرّة ، وبيعة نزيهة ، وباشر منصبه ، فقلّت نفقته ، وهو حاكم يكدح للمسلمين ، عن نفقته ، وهو تاجر يكدح لنفسه ! ثم شاء ألا يموت حتى يرد إلى بيت المال كل درهم أخذه منه أجراً على عمل ، لتكون ولايته كصلاته ، وصيامه ، وخجه ابتغاء وجه الله ، وترفعاً عن ذرة من الدنيا ... !! وجاء الخليفة الثاني بعد استطلاع للرأى العام لم يكن منه بد ، ولم يكن عنه عوض ، فإن جيوش المسلمين مشتبكة مع الفرس والروم شرقاً وغرباً ، فيستحيل أن يتم انتخاب ... وسار عمر سيرة سابقه عدالةً ، وعفةً . وإذا كان المهازيل في عصور كثيرة يسمنون بعد تولّى المناصب ، فإن عمر خرج من منصبه عارياً من أعراض الدنيا كلها ، وقتله عليّ حاقداً في بيت الله ، وهو يوم الركع السجود .. وإذا كانت الأقطار المفتوحة تشكو صلف الغزاة ، فإن عمر أبى إلا أن تعرف الشعوب معنى الحكم الجديد ، فما كاد يسمع أن ابن عمرو بن العاص والى مصر أهان أحد الأقباط ، حتى استدعى القبطي المظلوم ، وأعطاه السوط ليجلد ابن الوالى القرشيّ المعتدى ... ! هل يعنى تاريخ الفرس والروم ، أو تاريخ الإنكليز والفرنسيين مثل هذا الدرس ؟

وجاء الخليفة الثالث وليد شورى من كبار الصحابة ، وكان رجلاً ذا مال في الجاهلية والإسلام ، عرك أذن خادم له من العبيد ، فرأى أنه أوجعه ، فأعطى أذنه هو للعبد قائلاً : اقتصّ لنفسك ، وخجل الخادم ! وألحّ عثمان لأنه يخشى يوم الحساب ! إن فتناً عمياء أحاطت بهذا الخليفة - وهو من أنبل خلق الله - فطاحت به ، وكان من ورائها ائتمار اليهود والمجوس وسذاجة العرب الذين يعرفون معارك النهار ولا يعرفون مؤامرات الظلام ، ودسائس المهزومين من وتبين وكتابين .. وجاء الخليفة الرابع عليّ بن أبى طالب ، وهو رجل أوقى الحكمة ، والفروسية ، وطلب الآخرة ، وازدراء الدنيا ، بل إن فضائل الإسلام البقت في إهابه وتمثلت في جهاده ، وقد انتهت دولة الخلافة به ، لأن مصابه فيمن حوله كان أشد من مصابه فيمن قاتله .. !! وتلاحظ على دولة الخلافة هذه الخصائص : أن الخليفة من أكفأ رجال الأمة وأقدرهم على قيادتها ، وأن الشورى كانت مرعية ، فلا إفتيات ، ولا استبداد ، ولا استعلاء ، وأن يد الخليفة في المال العام كانت مغلولة ، فلا يستطيع توسعاً ، ولا استغلالاً أبداً ، وأن العمل بالإسلام وله في الداخل والخارج كان

شغله الشاعل ، ويمكس القول : إن الدولة فى صدر الإسلام كانت الوجه الحفيل للرسالة الإسلامية ، وكانت صورة حسنة للأمة الإسلامية ... ثم بدأ تحول يجب عرضه بدقة ، نشأ عن طبيعة العرب أنفسهم ! فالعرب تشيع فيهم العصبية القبلية ، ولهم اعتداد مكر بالأسباب والأحساب ، ونزعاتهم الفردية طاعية . وقد قمع الإسلام هذه الجاهليات فى سيرتهم ، بيد أن عرائر هذا الحس القوي لم تلبث أن اقتحمت سياج الكبت ، وفرضت نفسها على شعة الحكم فى الإسلام ! ثم فرضت نفسها على شعب أخرى اجتماعية واقتصادية ، وخلقية ...

وهذا التسلل العربى المنحرف المغالب لتعاليم الدين ، بدأ - لا أقول - على استحياء بل على استخفاء ، وخبث ، فإن الجماهير من العرب ، وغير العرب كانت أمينة على دينها ، حريصة على العيش فى ظلاله ، فكيف تستطيع العصبية الشريرة التنفيس عن ذاتها فى هذا الجو ؟ على كل حال لقد بدأت التحرك رافعة علم الدين !! وإنى لأعجب : لماذا يرى عربى ولد فى بطحاء مكة ، أن لسلالته الحق فى حكم شواطئ الهادى والهندى والأطلسى ؟ ألأن أباه كان عمدة فى الجزيرة العربية والشام والعراق ؟ ولماذا يحيل نظام الخلافة على عاتقه هذا العبء الثقيل ؟ وماذا كسب الدين نفسه من هذه الذرية من الضعفاء أو الأقوياء^(١) ؟ لكن بنى أمية ، ثم بنى العباس فعلوها ، فاستصحبوا سبهم « العريق » وهم يفرضون أنفسهم حكاما على الأمة ، ويسوون وحودهم وحدهم فى مناصب القيادة ، بأنهم اقدر من غيرهم على خدمة الإسلام ونشر دعوته !! قد تقول : مالنا ولهذا التاريخ القديم ؟ ولماذا ننبش القبور ؟ والجواب أن الأمر ليس أمر فردى ، أو حنس مآ ، إنه أمر دين يجب إنصافه .. فإن «الحكم» هو أول ما أحل من عرى الإسلام ، وأمس «الدولة ورجالها» فى أغلب الأعصار والأمصار الوجه الدميم للإسلام ، لأسباب ينكرها الدين نفسه . ذلك أن الخليفة لم يكن أقدر الناس على القيادة ، ولامن أقدرهم ، أى أن الكفاءة استبعدت فى الترشيح للمنصب ! ثم وهنت أو ماتت أجهزة الشورى ، وانفرد بالتصرف عقل واحد يزعم لنفسه الكثير ! وانطلقت الأيدى فى المال العام تغرف منه دون حسيب ولا

(*) عندما يكون الخليفة أهلا للخلافة مستوفيا لشروطها مؤديا حقها لاهما ان يكون من أى بلد او قبيلة لكن عندما يكون غير مؤهل . تم يفرض مجرد أنه من بلد معين أو قبيلة معينة . هذا يكون اعراض الاسلام

رقيب ، وذهبت قناطر منه للخدامين والمداحين ، واضطرب العمل بالإسلام في الداخل والخارج على سواء ، بل لم توجد أجهزة رسمية متخصصة للدعوة في أنحاء العالم ، ففحش الجهل بالإسلام ، وحسب الأجانب أن الإسلام دين قتال وحسب ! ربما وهم البعض فظن أن هذه العلة العارضة أصابت الإسلام بشلل مكر !

وهذا جهل عليل ، فإن الإسلام ليس حزبا سياسيا قصاراه طلب السلطة ! إنه دين يهيم على النفوس والأفكار ، ويسوس الناس أولا بالعقائد والعبادات والتقاليد التي يضعها ، والأخلاق التي يرى عليها ، والتعاليم التي ينشرها ، والشعائر التي يرفعها .

والسلطة التنفيذية جزء من منهاجه ، وهو لم يفقدها منذ بدأ مسيرته ، وإنما استولى عليها من ليس لها بأهل ! وبقي عدد هائل من العلماء والمرين والدعاة والموجهين والعمال الأتقياء ، والولاة المحتسبين يعملون للإسلام بصدق وحماس ، ويوسعون دائرته لتنداح شرقا وغربا ، فكان انحلال عروة الحكم آفة تحملها الكيان القوى كما يتحمل الإنسان السوي صداعا اعتراه ، أو كما يتحمل الشاب الجلد دوارا ينتقص قواه ... وإنما ظهرت المأساة مع مر الزمان ، وترادف البلاء و ... شيخوخة الدولة ، وضعف أجهزة المناعة ، وقدرة الجرائم الكامنة على الفتك دون وجل ... إن العَرَضَ العابر سهل الدواء ، وقد يزول ويُنسى ، وتذهب آثاره ! لكن غلبة النزعات البدوية ، والعصبية العائلية على نظام الخلافة خلّف شرورا شرحناها في أماكن أخرى ، لعل من بينها رخص الكفاءة العلمية والخلقية والإدارية في أسواق التعامل ، واعتقاد الكثيرين أن التقدم والتأخر حظوظ عمياء أو أنها من قبيل المنايا التي قال فيها زهير :

رَأَى الْمَنَايا حِطَّ عَشْوَاءُ مَنْ نَصَبَ تَمَهُ وَمَنْ تَخَطَّىءُ بُعَمَّرَ فِيهِمْ !!

وهذا الاعتقاد وحده قاتل للأمم ، فكيف لا ينال من رسالة عالمية كالإسلام ؟ والأغرب أن ترادف الفساد نضج على الميدان العلمي نفسه ، فرأيت « علماء دين » يَسْتَحْفُونَ بالشورى ، ولا يسمعون لها أن تعترض الحاكم إذا ارتأى رأيا ... ويتحدثون في جراءة أن الشورى غير ملزمة للحاكم الفرد ! وهم معذرون في هذا الخطأ ! فإن أحد المفسرين شرح قوله تعالى ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ^(١٢) فقال :

(١٢) سورة آل عمران ١٥٩

ثم امض على الأرشد لا على الشورى !! أى أن ما اتجه إليه هو الأرشد ! وما ارتأته الجماعة هو الأفسد !! وتذكرت وأنا أقرأ هذا اللغو قول فرعون لقومه ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾^(١٣) وكان فرعون يرى قتل موسى ! لماذا ؟ يقول : ﴿ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾^(١٤) فرعون يخاف من فساد موسى !! هذا هو الرشاد الذى يجب أن يطاع ومألوف فى سيرة الحكم الفردى الإغداق على المؤيدين والأتباع والشع أو الحرمان للمخالفين والمعارضين ، والرأى التزيه لا يتماسك فى هذا الجو النكد ، ولذلك كان الحق مرا ! وربما كلف الحياة نفسها ، أما الملق فباب واسع إلى الثراء والرفاهة . وهل ضاع دين الله ودنيا الناس إلا بهذا المنطق الوضعي ؟ ذهب رباط المبادئ وبقي رباط المآرب والمنافع ! ذهب الحب والبغض فى الله وبقي الحب والبغض لدنيا تنال ، أو لشخص يلتمس فى جواره الجاه والمال ... وذكرت : جرير مع عبد الملك بن مروان^(١٥) ، وهو خليفة خطير المكاثة ، أو هو المؤسس الثانى لدولة بنى أمية ، جاءه جرير الشاعر ينشده قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح...؟

فقال عبد الملك : بل فؤادك أنت ! إن مطلع القصيدة لم يسره .. ! ولكن الشاعر مضى حتى بلغ هذا البيت .

ألستم خير من ركب المطايا ؟ وأندى العالمين بطون راح !

فطرب عبد الملك طربا شديدا ، وقال : بلى نحن كذلك .. خير من ركب المطايا ، وأسخر الناس أبادى وانفتح بيت المال ليأخذ جرير منه ما يشتهى ! وعطايا الخلفاء للمداحين لانهية لها ، ألهذا أنشئ بيت المال ؟ قال لى صديق : ذهب وفد من مصر إلى واشنطن عقب اتفاق « كامب ديفد » وكان يضم أكثر من مائة شخص ، وأقيم لهم حفل طعام فى البيت الأبيض ، فكتب صحافى

(١٤) سورة عافر ٢٦

(١٣) سورة عافر ٢٩

(١٥) الحليفة عند الملك حليلة عظيم ورج محاهد ، وهو من فاشى إفريقيا والمغرب ، لكن هذا لا يعنى أنه بلا أخطاء

أمريكي يستنكر إقامة حفل لهذا العدد الكبير ، وقال : إن دافع الضرائب في الولايات المتحدة لم يقدم ماله لمثل هذه الأغراض ! وأسرع البيت الأبيض يعلن أن نفقات الحفل قامت بها إحدى الشركات ، ولم تتحملها الدولة ... !! إن المال العام ليس كلاً مباحاً ، يتخوَّض فيه الحاكمون بغير حق ، وصون هذا المال جزء من النزاهة التي تحترم بها الدولة .. وسيرة الخلفاء الراشدين بالغة الدقة في احترام المال العام ، ولأمر ما رفض علماء الإسلام إضفاء صفة الرشد إلا على دولتهم وحدها ، ثم ضموا إليها خامساً هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . إن علماءنا قديماً لم يخونوا دينهم ، والأئمة الأربعة ومن داناهم في مكانتهم ، وجمهور المريين والدعاة ، التزموا هذا النهج ، ثم جاء علماء سوء رأوا الجبن أنجي فآثروا الصمت ! ثم جاء تخلف آخر يرى إرضاء المستبدين من الدين ... ! الخلافة الراشدة أبوة مُحَبَّة ، ورياسة حانية ! ورباط بالأتباع والأعوان على إنجاح رسالة ، وحماية دعوة ! أما الخلافة غير الراشدة فالخوَر الأول لنشاطها هو امتلاك السلطة وإدامتها ! ونجى الأهداف الأخرى تابعة ... وتأمل في معاملة القادة الكبار بين هذين المثالين : لما قُتل النعمان بن مقرن في معركة نهاوند بعد ما أجهز على المجوسية والكسروية ، جاء البريد إلى المدينة يحمل نبأ استشهاد ، وكان عمر في إحدى مراحل الطريق يتشوّف للأنباء فلما سمع الخبر شهق بالبكاء حتى أن عامل البريد فزع لحزنه ، وقال لأمر المؤمنين مسلياً : ليس هناك غيره من القادة أصيب ! فقال عمر : هناك فقراء المهاجرين الذين لا يضرهم أن يسمع بأسمائهم عمر !! ذاك على عهد الخلافة الراشدة ! أما في عهد آخر فإن قادة الفتوح العظام في المشرق والمغرب لقوا معاملة منكراً ! قُتل محمد بن القاسم فاتح السند ، وأهين وعزل موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس ، لأسباب لا تشرف نظام الحكم .. ولو أن الخلافة الراشدة باقية ، لكان للقادة العظام شأن آخر ، بل لمضى الفتح في طريقه يؤدّب الأوربيين ، ويتيامن حيث وصل إلى جنوب فرنسا وجبال سويسرا ليشق طريقه نحو النمسا والبلقان والقسطنطينية في شرق أوروبا وبذلك يعود إلى الشام متمماً الرحلة التي بدأت من مصر ... إن الخلفاء الأماسرة لا يكثرثون بذلك ! لقد هاجت القومية العربية بغتة في دمائهم ، وعادت إليهم حمية الأنساب ، وتقاليد اليسوس وداحس والغبراء ، ورجحوا وساوس هذه العروبة الرعناء على وصايا الدين الذي ما كانوا قلبه شيئاً مذكوراً ، وهزموه آخراً بعد ما

نصرهم:ولا . وإن تعجب فاعجب لبعض العلماء الذين يريدون أن بسوسوا العالم اليوم لأمواريت الخلافة الراضدة ! بل بتقاليد البدو ، ومراج القائل في الصحراء محرفين الكلم عن مواضعه ، وذاهلين عن فطرة الله في الأنفس وآبانه في الآفاق .. !

تسلل آخر في الميدان الاجتماعي

إذا كانت الخلافة الراضدة قد تلاشت أمام بتقاليد العرب المديبة ، وأمسي للتشوري مفهوم مائع عامض لا ورن له ، فإن هناك هربمه أخرى لتعالم الإسلام في الميدان الاجتماعي يسعى أن تلقى الأضواء عليها .

من بدء الخليقة والوع الشرى يعبا ويبقى بالروحين الذكر والأنثى ، ولكلا الحسين حصائضه التي فطره الله عليها . ويمكن القول بأن الذكره أحسن وأقوى من الأنوثة ، وأن الأنوثة أصغر وألين من الذكره ، ولكن كليهما يكمل الآخر ، فهذه من تلك ، وأواصر النسب إلى آدم واحدة أو هي كما عرّ القرآن الكريم ﴿لَا أَضْيِغُ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى تَعْضُكُمْ مِنْ نَعْصِي﴾ *

ولكن اردراء الأنوثة ، واستصعافها ، وإبكار حقوقها الطبيعيه حلائق مألوفة من رمس بعيد ، وبعض المحامع الأوربية كال يتساءل : هل المرأة من الحسن السرى العادى كالرهل ؟ وهل لها روح مثل روحه ؟ والقوايين الأوربية على مرّ التاريخ كانت تكرم الرهل وتنقص المرأة ...

وهناك ممادح وحشية لإبكار حق الحياة على المرأة ، فمى بعض أرحاء الهد كان الروح إذا مات وحب أن تموت المرأة معه مهما كانت صحيحة البدن ! وليس أغنى من الهود - فى هذا الحكم - إلا عرب الحاهلية الذين يشتاءمون لمولد الأنثى ، وقد يثدونها فتلفط أنفاسها الواهة تحت التراب !

إن الأب السامى القدر يخاف إذا عاشت الست أن تحرّ عليه العار ، وما العار عند هذا الحلوى ؟ يقول عربى صائق بالأنثى . والله ما هى نعم الولد ! بصرها بكاء ، وبرها سرقة !! يعنى أنها لا تحسن القتال فتتصر عشرتها ، ولا تفدر على الكسب فتتّر أهلها من مالها ، وإما تأخذ من مال روحها لتعطى أهلها إن كانوا

* سورة آل عمران ١٩٥

فقراء ونسأل : من وراء تجهيلها في فنون الحرب ؟

إنه أبوها الكاره لها ! ومن وراء تجهيلها في كسب الرزق ؟ الجواب نفسه ...
إن اليهوديات في فلسطين المحتلة يزرعن الأرض ، ويحملن السلاح ، ويقاتلن
رجالنا بشراسة ..

وقد جاء الإسلام فاحترم الأنوثة ، واستبعد كل النظرات السيئة إليها ، ورفض
أنواع الإهانات التي كانت تلقاها ، وعدّها جزءاً من حقيقة الإنسانية التي جاء
لتزكيها ...

ووعى المجتمع العربى على عهد السلف الأولين المرأة تتردد على المسجد من
الفجر إلى العشاء ، وتتعلم الدين كما يتعلم الرجل ، وقد تقاتل مع المقاتلين ! وقد
تداوى الجرحى ، وتدفن الموتى ، وتأمر وتنهى وتنصح ... الخ

إلا أن التقاليد العربية الجاهلية التي كانت تحتاح الأنوثة قديماً ، وتجاوز حقوقها
المادية والأدبية ، عزّ عليها أن يطفر الإسلام بالمرأة هذه الطفرة ، فعادت تسلب ما
منح الدين ، وتنكر ما أقرّ ، وتعامل المرأة على أساس أنها متعة وحسب !

ومن ثمّ صدر تحريم - من جهات غير معروفة - بالأتصلي امرأة في
مسجد^(١٦) وظل هذا الحظر قرابة اثني عشر قرناً ، ولا يزال إلى الآن يقاوم
نصائح المصلحين .

وصدر تحريم مثل الأول بالانتسب إلى مدرسة ، ولو لحو الأمية^(١٧) بله التعليم
المتوسط والعالى .. ولولا ضغط شديد من أولى النهى ما أمكن تعليم النساء في
عصرنا ، ولبقين لا يعقلن شيئاً من أنواع العلوم ...

وصدرت فتاوى بأن وجه المرأة عورة « ولو من غير فتنة » وصوتها عورة
وأخذت الفتوى حكم الأمر اللازم وليس الرأى الاحتمالى ، وقيل إن المرأة إجمالاً
لا علاقة لها بالنشاط الثقافى والاجتماعى ، أما سائر الأنشطة المدنية والعسكرية
فالوجود النسائى فيها منكر غليظ جملة وتفصيلاً ..

والحق أن الشريعة الإسلامية في شئون النساء تخرج من بين فرث ودم ،

(١٦) من العرب أهم في هذه القصية يفصلون كلام بعض الصحابة الذى لا يعدو أن يكون إستيائاً من بعض
المخالفات — على كلام الرسول الواضح الحاسم في أنه لا يجوز مع إماء الله مساحد الله (!!!) .

فالجاهلية العربية التي فرضت نفسها مئات السنين مرفوضة ، والجاهلية الأوربية الوافدة مرفوضة هي الأخرى وبعض المتحدثين في الإسلام يبغي العودة بالمرأة إلى التقاليد البدوية ، أو الأوضاع الجاهلية المزدرية للأوثنة ... كما أن بعضاً آخر يريد تقليد أوربا في كل شيء ، وأحكام الإسلام أشرف من أن يثرثر بها هؤلاء وأولئك ... قدم إلّي شاب متدين كتيّباً ألفه عالم يدعو للنقاب ، يحكم بالفسق على السوافر من النساء. ومددت بصرى إلى السطور الأولى فوجدت الرجل يقول: إن الإسلام حرم الزنى فوجب ستر الوجه سداً للذريعة ! قلت : استدلال ساقط ، فقد طلب الإسلام كشف الوجه في الحج والصلوات ، فهل كان بذلك يُحرَضُ على الفاحشة ؟ وروت كتب السنة الصحاح نحو عشرة أحاديث تفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام رأى الوجوه مكشوفة فما أنكر ذلك ، فهل كان يقرّر المنكر ؟ واستثنى القرآن الكريم الزينة الظاهرة مما ينبغى ستره ، فأين تكون هذه الزينة ياترى؟ الحق أن نصوصاً صحيحة أهملت عمداً ، أو حرّف معناها ، وقُدمت عليها أحاديث موضوعة تحضّ على جعل النساء أميات ، أو أحبار واهية تفيد أن المرأة لاترى أحداً ، ولا يراها أحد ، وهى آثار منكرة تخالف مخالفة جليّة ماثبت عن السلف الأولين بطريق التواتر ، أو الصحة ، وقد أخذ المسلمون في تجهيل النساء ، وإهمالهن حتى أصححن في العصور الأخيرة من سقط المتاع ، وأصبحت الأوثنة رمز الهوان ، وتفاهة الشأن ..

كنت يوماً أطلع إحدى الصحف ، وكان في صدرها صورة لرئيسة وزراء إنجلترا « تاتشر » فقال لى شاب يرقبى : أترى هذه الصورة ؟ قلت : نعم ! فاستلّ : أيعجبك هذا ؟ قلت : قومها يصفونها بأنها امرأة حديدية ! وقد أعجبنى موقفها فى مجلس العموم وهى تطالب بإعادة عقوبة الإعدام إلى القانون الإنكليزى ، صحيح أن المجلس خذلها ، بيد أنى أراها أذكى وأبصر للحق من مائتى عضو عارضوها ، وانتصروا عليها ...

إن مسئوليتها عن الأمن أقنعتها بضرورة القصاص ، وهى أرشد وأعدل من الرجال الذين قاوموها !

وأراد الشاب مقاطعتى فقلت له : وشيء آخر سرنى منها عندما حاربت المحتلّين الأرجنتين - وكانت هذه المرأة تقود قومها - رثيت ترتدى السواد باستمرار ،

كانت ترى كل جندى يقتل من أبناء وطنها أخا ، أو ابنا فهي تلبس عليه الحداد ،
وترفض كل شارة للسرور والبهجة !!

إها في نظرى أفضل من حكام في الشرق لهم شوارب ولحى !

قال الشاب : ألا ترى رأسها العارى ؟ قلت : هذا أدب إسلامي ينقصها ،
والإسلام يرى أن الرأس عورة يضرب عليها الخمار ، وسواء كانت العورة معلطة
كما يقول الأئمة أو مخففة كما يقول المالكيون ، فالشعر ينبغي ستره احتراماً لتعاليم
الدين . وكل ما أضمه إلى هذا الحكم أن داخل الرأس أهم من خارجه أعنى أن
الذكاء أو الغباء والعلم أو الجهل قضايا أخطر من غيرها ، ولا تغض من الأدب
المطلوب .

لا نريد النمط ولا التقاليد الجاهلية

وربما سارع البعض إلى اتهامى بالميل إلى الحياة الغربية ، وقبول وضع المرأة
فيها !

وحواي أرى أنكر هذه الحياة ، بقدر ما أنكر المواريث التي آلت إليها ترخص
الأنوثة ، وتجمد إنسانيتها ، وتستكثر عليها حقوقاً منحها الله إياها ..
إن لأوامر الله مكانتها العالية ، وإنى لأرفض إعطاء هذه المكانة تقاليد قَبَلِيَّة ما
أنزل الله بها من سلطان .

إن المسلمين في الأعصار الأخيرة فتكت بهم أمية طامسة ، وكانت بالنساء
أفتك ! وغابت عنهم هدايات الله في تفتيق الأبواب ، وتنمية الفضائل ، وكانت
عن النساء أبعد ! واختفت حقيقة الإنسان وراء تراويق ومراسم مفتعلة ، وكان
نصيب النساء بعد هذا الاختفاء أن أمسين أجساداً تُلف بالثياب ، وترى وراء
الأبواب ، فلا علم ولا عمل ، ولا رأى ولا نصيح ، ولا عبادة ولا جهاد .

إن الجاهلية القديمة سمحت لنسوة تقيات أن يشاركن في بيعة العقبة ، ما
وصعت على أيديهن قيوداً ! أما المسلمون في القرون الأخيرة فيستحيل أن تسمح
تقاليدهم . بذلك !

حدث في حروب الردة أن أسر خالد بن الوليد مُجاعة بن مرارة سيد أهل
الجمامة ، فأوثقه ورمى به عند امرأته أم تميم في فسطاطها وحفظت المرأة أسيرها ،
فلم ير الأسير منها إلا الشرف والصدق !

وجال المرتدّون جولة هزموا فيها المسلمين ، واقتحموا فسطاط خالد ، وحمل
رجل منهم بالسيف على أم تميم ، فألقى الأسير رداءه عليها وقال : أنا لها جار ،
فنعمت الحرّة والله ما علمت ! دعوها وعليكم بالرجال !

ثم عادت الكثرة للمسلمين ، واستعادوا الفسطاط ، وأخذوا يقتلون محتّيه ،
ووضعوا أيديهم على الأسير ليقتلوه ! فقالت أم تميم : أنا له جارة ... فتركوه !
كانت للمرأة شخصية ، ومكانة فلم يحاول أحد مراجعتها أو تخطئتها ، ونحن
نعرف حديث : « قد أجزنا من أجرت يا أم هانئ » ! أما الأعصار الإسلامية
الأخيرة ، فبين المرأة وهذه الأخبار بعد المشرقين .. !

أحيانا تملكى الحبرة وأنا أوازن بين الجاهلية العربية ، والجاهلية الأوربية القديمة
أيام الصقالية والإغريق ... التماثيل اليونانية والرومانية تنحت مكشوفة السوءة
للرجال والنساء عموما على عكس الأدب والحياء الظاهرين في تماثيل قدماء
المصريين ! آلهة الإغريق منحلة رشادة ، ومجالس الفلاسفة قد يقع فيها الخنا ، وقد
يرى بعضهم إشاعة النساء .. !! أما العرب الأقدمون فأساس خلائقهم التحفظ ،
وإن وجدت أندية ناجرة في قرى المؤتفكة ، وسمع إفحاش سخيف في شعر امرئ
القيس مثلا ..

لندع البحث التاريخي في طبائع الأمم ، ولا داعي للربط بين الأُمس البعيد
واليوم الحاضر ولنذكر ما نقبله وما نأباه في العلاقات بين الجنسين على ضوء من
الدين وحده ، ودور اكتراث لطبائع الشعوب ، أو مزاجها في التحليل والتحرير
إننى أشعر بمدى تسفل العرب عندما تطيح تقاليده بعفة فتيات لم يتجاوزن بضعة
عشر عاما من أعمارهن . وأشعر بمدى قسوة الشرق عندما تبقى نسوة أبكارا في
بيوتن وقد بلغن الستين والسبعين ...

أى دين يقبل هذه التقاليد أو نلك ؟؟

التسؤل الجنسي في الغرب محاذي إعداد الحلال والحرام ، فاستبيحت الأعراس

طواعية وكرها وتقاليد الكبت عدنا عسرت الزواج بعلى مفتعلة ، وبدأت تجرف الشباب إلى الفاحشة .

وناس من المتحدثين باسم الإسلام يحرسون هذه التقاليد ، ويزدادون بها تشبها كلما رأوا مبادئ الغرب وفتوته ، ناسين أنهم يحثون المسلمين إلى بلاء مبين .. وأبادر إلى القول بأننى ألتزم التزاما تاما بتعاليم ديننا الحنيف ، ويستحيل أن أتجاوز نصا قاطعا ، أما النصوص المحتملة ، والاجتهادات الأخرى ، فقد اقتنعت بأمرين : أولها أن تراثنا الفقهي بحرٌ نحى ، وأن فقهاءنا فعلوا الكثير الجدير بالاحترام في خدمته ونفع الناس به ، ولكن الزعم بأن الصواب حكروا على مذهب بعيه ، وأن الخطأ حكروا على آخر زعم بعيد عن الحق . والثانى : أن من حقا الموازنة بين الأقوال المروية واختيار ما براه أرحح دليلا ، وأجدى على الناس وأصلح لتسليع الدعوة .

وتبيحة لهذا الموقف فقد رفضت المذهب القائل بأن الأعجمى ليس كفتا العربية ، ورأيت لوبا من التفرقة العنصرية ، والمغالاة فى الاعتداد بالأنساب ولم أحترم إلا الدين والتقوى والكفاءة الشخصية .. كما رفضت كل إلغاء لإرادة المرأة فى الزواج ، ولم أعترض مباشرتها للعقد إذا اقتضى وضعها ذلك ! ورفضت الطلاق البدعى وأهدرت آثاره كلها !! وأنكرت القول بأن وجه المرأة وصوتها عورة^(١٧) كما يرحف الحاهلون وحاربت معها من التعليم كما حاربت بقسوة إغلاق المساحد فى وجهها ، ولا يرال جمهور من أدعياء الدين يفعل ذلك ..

وقبلت شهادة المرأة فى جميع القضايا المدنية والحائية فى حدود الصواب المشروع ، ولم أفهم وجهها لمنعها من الشهادة فى الحدود والقصاص .. !! وأيدت فى ذلك الفقه الظاهرى !!

وللمرأة ذات الكفاية العلمية والإدارية والسياسية أن تلى أى منصب ماعدا منصب الخلافة العظمى ، وتستشار وتشير ، ولرأيا وزه بقدر ما فيه من حق . ولا يسوغ لا عقلا ولا نقلا أن يخلو رجل بامرأة ، والاختلاط على الصفة المألوفة فى أوربا مرفوض ، ولكن احتلاطا على النحو الذى كان فى المسجد على عهد السلف لا مانع منه : ويجب أن تحكمه آداب الإسلام فى الاحتشام وغض

(١٧) إلا إذا تيقنت الفتنة

البصر واتقاء الرية وانصراف كل امرئ إلى واجباته ...

وينبغي تعليم النساء قتال الشوارع والبيوت من شقة إلى شقة فإن أعداء الإسلام يحتلون أقطارا كبيرة منه ويهددون أقطارا أخرى ، والجهاد - والحالة هذه - فرض عين على كل رجل وامرأة ..

عندما كنت أزور الجزائر سمعت باسم السيدة فاطمة السومرية التي قادت جيشا من أشجع الشباب ، وهزمت عددا من الجنرالات الفرنسيين في معارك ضارية !! واستغربت لأن اسمها وإن ذكر باحترام كبير يُطَوَّى على عجل ... قلت : إن الفرنسيين يعدُّون « جان دارك » قديسة ، ويسلكون اسمها بين أكابر القادة ! ولا يستحون من إبداء الاحترام العميق لذكرها بينما يعدها الإنكليز الذين حاكموها وأعدموها ساحرة مشعوذة ... قلت لمن يحدثني من الجزائريين : خلدوا سيرة بطلتكم هذه ، ودرسوها للبنات في المدارس والمعاهد فالذكرى تنفع المؤمنين ! ... لماذا هذا الغمط ؟؟

من المحزن أن ينتقل ازدراء الأنوثة من تقاليد الأعراب والصعاليك في جاهليتهم الأولى إلى المجتمع الإسلامي ، ويظهر هذا الازدراء في أفكار وأحكام وأخلاق تشيع بين الناس وكأنها تعاليم دين ! بل لقد حرّف كلم عن موضعه وأولت نصوص ، وضعف صحيح وصحح ضعيف ، لالشيء إلا لغمط الأنوثة ! وأكد أجزم بأن سوء التربية في قرون مضت إلى يوم الناس هذا يرجع إلى جهالة النساء وعجزهن إلا عن الوظائف الحيوانية ! كما أن تطلُّع قائدات النهضة السوية إلى الغرب ، يُعجِّب ويُقتبس منه ، يرجع إلى العرض المكذوب لتعاليم الإسلام ، أو بتعبير أدقُّ إلى عرض عادات وأحكام جاهلية على أنها كتاب الله وسنة رسوله ...

إن جمهرة من علماء الدين وضعت صعوبات رهيبة أمام تعليم المرأة في شتى المراحل ، ولم تستسلم إلا كارهة ! وهي الآن تضع ذات الصعوبات أمام تردد المرأة على المسجد ! أما بقية المقررات الإسلامية التي ذكرناها آنفا فهم يقاومونها كما يقاومون الكفر^(١)

من عشرين سنة كان القضاء الشرعي في مصر يأمر الشرطة باقتياد المرأة إلى « بيت الطاعة » مادام الرجل قادرا على نفقتها ، ضاربا عرض الحائط بكراهية المرأة للزوجية ، ومطالبتها بإنهاء هذه العشرة !! وكان أهل الزوجة يهرَّبونها من

بيت إلى بيت ويحتالون على إبطال هذا الحكم .. ولغطت الصحافة بهذا التشريع المهدر لحقوق الإنسان ونالت من كرامة الدين نفسه ثم جاء أحد وزراء العدل فأصدر أمراً بعدم تنفيذ هذه الأحكام ، وبذلك أنقذ المرأة من قسوة الشريعة عليها .. !

وكتب يومئذ مقالا نشرته « الأهرام » بحروف كبيرة شرحت فيه حكم « الخلع » وثبوتها بالكتاب والسنة ، وقلت : إذا كرهت المرأة البقاء مع زوجها رفعت أمرها للقضاء ، وردت ما أخذت من مهر ، وحكم القاضي بفسخ العقد القائم أو إيقاع طلاقه تنهى النزاع ، ولا معنى لاعتقالها وجرحها إلى أحضان رجل تبغضه بقوة الشرطة ، أو الجيش !!

وحبذت ما فعله وزير العدل ، وقلت : إنه طبق الشريعة ولم يخرج عليها كما يزعمون .. إن الذى كان يحدث هو بعض التقاليد البدوية المتسللة إلى فقهاء فى غيبة الوعي الصحيح وقد شعرت بحرج بالغ عندما صدرت من أحد العلماء^(١٨) فتوى بأنه - يحرم على المرأة أن تقود سيارتها ! إذ قال لى صحافى أريب : إن الحضارة أمكنت المرأة من غزو الفضاء ، ولا يزال الدين يحرم عليها أن تقود سيارة على ظهر الأرض ؟ أليس من حق الناس أن يسوء ظنهم بالدين ويقصوه عن شئون الحياة ؟ قلت : ما حرم الإسلام على المرأة أن تقود حمارا ولا أن تقود سيارة ! وأحسب أن ظروفنا محلية أوجت بهذا الحكم ! وعلى أية حال فهو كلام لإنسان ، وليس قول الله ورسوله ... إن الإسلام يقول ﴿ لَا أُضْيَعُ عَمَلَ عَنَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ لكن التقاليد عند بعض زاحمت الإسلام على تعاليمه ، ونالت منها ونحن نتبع الإسلام وحده ، ورفض سائر التقاليد الأخرى عربية كانت أو غربية ..

ضرورة غربة المنقول من التراث والحضارة الحديثة

والحق أن الإسلام تحمّل العنت من الساسة الذين حكموا باسمه وسوا هداة ! ومن المجتمعات التى انتمت إليه ثم قدمت موارثها وأهواءها على مطالبه ووصاياها .

(١٨) هذا العالم قاس الأمور على أمور إجتماعية وإقتصادية عبده ، وقد يكون له الحق فى تحمّله ، لكن ما كما بريده منه ، ونسب شق فى إحلاصه وورعه أن لا يعمم ، بل يترك الأمور مفتوحة لأن الأصل الإباحة ، والتقييد قد يجوز كعارض طارئ استثنائى

(١٩) سورة آل عمران ١٩٥

وقد ترنحت الدعوة الإسلامية وهي تشق طريقها إلى أقطار العالم في العصور المتأخرة - والوسيلة - لأنها حملت مع تعاليم الإسلام أخلاطا أخرى غريبة على وحى الله !

بل إن المسلمين داخل أرضهم ذاتها عاثوا من إغفال الشورى وتحكم الفرد ، ومن فقدان المال لوظيفته الاجتماعية ، وعانوا من تحقير النساء وحسهن دون علم ولا عبادة ولا تصاح ، ثم نشأ عن ذلك هبوط إنسانى عام أزرى بهم ، وأسقط على مرّ الأيام مكانتهم ورسالتهم وقذف بهم في مؤخرة القافلة البشرية بعد أن فقدوا الصدارة عن جدارة لا عن ظلم ...

فلما بدعوا يصحون ويتحركون أحدثت عقابيل الماضي تعترضهم .

ومن عجب أن تهفوا الجماهير إلى الشورى ، فإذا متعلم تافه يفرع الشورى من حواها يخدم الاستبداد السياسى ..

وإذا مدّع يقول : يجب أن تعربل التقاليد الشائعة بينا غربلة شديدة حتى لا يبقى منها إلا ما كانت له بالشرعية صلة ، وعلى قدر قوة هذه الصلة وضعفها يكون استمسكا بهذه التقاليد أو إهمالها .. ! إن نجاح التصنيع في عالمنا العربى مصححة لا يتم إلا بعد الإحهاز على التقاليد التى تردى الاحتراف وتؤخر أصحابه ! ربما كره البدوى أن يخرج من تحت آله وهو مُعَفَّر الحين أو مُرَقَّت الكف ، وربما ظن الشرف فى عمل أنضر ! إن هذا الفكر لا ورن له ، ولا صلة له بالدين ، وكل ما انبنى عليه من أحكام فقهية أو آثار اجتماعية فهو باطل ، وحير لنا أن نتوب منه توبة نصوحا ..

والتقاليد التى تردى الأوثنة ، وتميل إلى اتهام المرأة وتحميلها ومع ترددها على المسجد واستبعادها من ميدان الأمر والنهى والغض من كفاءتها إن أحسست ، ومضاعفة العقوبة عليها إن هفت ، تلك كلها عادات من رواسب الحاهلية الأولى ، والأخذ بها مصاد لتعاليم الإسلام بضاو روحا قال تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٠) والإسلام ليس غرائز جنس ما ، ولا عادات بلد ما ، إنه تعاليم

نزلت من السماء ولم تنبت من الأرض .

وقد لاحظت سلطان البيئة في بعض الأحكام الفرعية ، - يختلف بين قطر وقطر ، قرأت ثلاثة شروح ل « متن خليل » الذي يسود المغرب العربي تقرر هذا الحكم « وانتقاب المرأة أى تغطية وجهها إلى عينيها في صلاة أو خارجها - والرجل أولى - ما لم يكن عادة قوم فلا يكره في غير الصلاة - ويكره فيها مطلقاً لأنه من الغلو في الدين » وكرهية النقاب هنا غير طلبه في بيئات أخرى ... ! وأرى أن تنفرس بقوة في الموارث التي آلت إلينا ، وعزائم الدين ليست موضع ريبة ، وإنما تتفاوت الأنظار في القضايا الثانوية ، ومن حقنا أن ننتقي من أقوال مجتهدينا ما يدعم أمتنا في هذا العصر ، وما يحنبنا مزالق وقع فيها غيرنا ، وما يبعد عن الإسلام تهماً هو منها براء ، إن تجارب عديدة يجب أن نعيها من مسيرتنا التاريخية الطويلة خلال أربعة عشر قرناً ، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ...

للغيرة يقول : المرأة لا ترى أحدا ولا يراها أحد !

كأن عصر النبوة كان يقبل المنكر عندما رصّ النساء صفوفاً في المسجد ، وعندما قبلهن عوناً للجيش في بعض المعارك ...

إن الإسلام يراد هدمه باسم الإسلام !

والقائم بهذه المهمة شيوخ أو شباب لاهم من أهل الذكر ولا هم من أهل الفكر ...

وفي عماء من مخلفات المعاصي السياسية والاجتماعية ، وتحت ضغط الهزائم ، التي نكست أعلام الإسلام في أكثر من ميدان ، ومع صحوة من مراجعة النفس ومحاسبة الضمير ، ومقارنة الأمة العليلة بالأئمة الغالبة ، شرع المصلحون يتكلمون ويتساءلون : ما النظام الإسلامى المنقذ وسط هذا الطوفان . ؟ !!

يقول محرر مجلة الفكر الإسلامى السودانية : « إن القضايا المعاصرة التي تحتاج إلى نظر عميق واجتهاد جديد كثيرة ومتشعبة ! إلا أننا يمكن أن نشير إلى أهم هذه القضايا إذ لا يمكن بناء دولة حديثة دون البتّ فيها بصورة أو بأخرى ... من هذه القضايا قضية التغيير الاجتماعى - أو الانقلاب الإسلامى كما يسميه أبو الأعلى المودودى - كيف يتحقق في ظل الدول العلمانية القائمة اليوم في بلاد المسلمين ؟

هل يتم عن طريق الثورة الشعبية أو الانقلابات العسكرية ؟ أم الإصلاحات القانونية من داخل النظام القائم ؟ وهل بعض هذه الطرق يجوز في أقطار معينة ولا يجوز في أخرى ؟ وما هي النظرة إلى هؤلاء الحكام العلمانيين ومعاونيهم ومن رضى بحكمهم من عامة المسلمين ؟

ومن هذه القضايا مشكلة نظام الحكم والإدارة في ظل دولة إسلامية . هل تسمح هذه الدولة بالأحزاب والتجمعات السياسية ؟ وهل يمكن أن يفرد حزب إعلامي واحد بالسلطة أم تمتنع جميع الأحزاب ؟ كيف يكون شكل النقابات والائتلافات المهنية ؟ وما دورها في ظل نظام إسلامي ؟ كيف تمارس الشورى ، وكيف تنظم أجهزتها ؟ ومن هم أهل الحل والعقد في الدولة الحديثة ؟ كيف يتم اختيار الحاكم وكيف يعزل ؟ وما هو وضع الأقليات غير المسلمة ؟ وهل يجوز إشراكها في الأجهزة التشريعية والتنفيذية في الدولة ؟ وهل يجوز إشراك المرأة في هذه الأجهزة كذلك ؟ ما هي علاقات الدولة الخارجية بالدول القائمة في العالم الإسلامي ، والدول المجاورة ، والدول الكبرى ؟ إلى أي حد تناصر الدول الإسلامية المسلمين والمستضعفين في بلاد أخرى ؟ . إننا نتحدثنا في هذه القضايا ، ونحدث فيها المعنيون بحاضر الإسلام ومستقبله ، وكان الحديث مشوبا بالمرارة ، يستكشف الحقائق بحذر حيناً وبجراءة حيناً آخر ... والسبب أن الاستسلام للواقع الكئيب سيطر على فقهاء عدة قرون ، فرضى باغتصاب السلطة ، وأعطى الحكام المتغلبين صفة شرعية !! ورضى بانحرافات ثقافية واجتماعية أخرى ، كما يرضى العليل بصحبة داء عز دواؤه . ويخيل إلى أن انهزام دولة الخلافة الراشدة ، ثم انهزام القوى المعارضة كلها في أعصار وأمصار شتى ، ترك في النفوس عقدة لاتحل ...

بيد أن الله لا يرضى أن تهمل هداياته على هذا النحو ، ثم يترك المفرطين دون عقاب ! لقد قلنا مراراً : إن سنن الله الكونية تتأثر ممن يتجاهلها وتواجهه بعواقب تفریطه ! وأمة يستقر فيها اغتصاب الحكم^(٢١) ، وتعيش في أجوائها انحرافات والانحرافات ، لابد أن تدفع ثمن هذا السلوك المعوج ، ولن يغنى عنها ادعاؤها للإسلام ، لاسيما إذا كان حكام الدول « الكافرة » أعدل ، ومعاملاتهم لشعوبهم

(٢١) في بعض العترات كانت الأمة تنام ولا تعرف من سيعتصب الحكم في الصباح !! .

أجدى وأرحم ، وإذا كانت هذه الشعوب أدنى إلى منطق الفطرة في علاقاتها الداخلية .

ونحن - مسلمى العصر الحاضر - ندوق ثمار تفريط قديم ! ولكننا ورثنا نظريا الوحي الإلهي مصونا ، كما ورثنا رغبات عميقة في العودة إلى الحق والتوبة إلى الله !!

وأرى ونحن نبني هيكلا جديدا لدينا ودينانا ، أن ندرس الحضارة الجديدة بما لها وما عليها ، وأن نستفيد من تجاربها في دعم مقرراتنا ، ولا معنى أبدا لتحاهل الجهود الإنسانية التي بذلت في إبداع هذه الحضارة .. كما ينبغي اتقاء سوءها وغرورها ، وشرها ، واقتياتها المفضوح على غيرها ..

إن لدينا موارث نفيسة في تاريخنا الثقافي والسياسي لا يجوز إنكارها ، بيد أن هذه النفائس اختفت في ركام من عهود الانحلال والانحراف ، وما أطولها في ماضينا ! والمأساة التي نواجهها الآن أن كاتبين وموجهين يذهبون إلى هذا الماضي ويعودون منه بما يضر ولاينفع ، وربما نقلوا منه أسانيد للاستعمار الداخلي ، والخلحلة الاجتماعية التي نعاني منها ... إن مصادر الأسوة العلمية والعملية معروفة ومضبوطة في فقها ، وقد برز رجال كبار في تاريخنا العلمي ، ما عم عاقل العصمة لهم ، ولا طالبنا باتباعهم في كل ما قالوا وفعلوا ..

خذ مثلا أبا حامد الغزالي ، إنه رجل من ألمع رجال التربية والأصول والفقه والفلسفة ، وجوانبه المشرقة كثيرة ، ونحن نقبس منه بدائع وروائع ... لكن هل نتابعه في قصوره في علم الحديث ؟ هل نتابعه في موقفه السلبي من حكام عصره^(٢٢) ، وهم طرار ردىء ؟ هل نتابعه في غفلته عن طلائع الحملات الصليبية التي أكلت المسلمين يومئذ ؟ إن الحسنات تستوقفنا ، فتمتلاها ونستفيد منها ! أما الهنات فنحذرهما ونباعد أمتناعها ، وقد أفرغنا أن يظهر في صحتنا الإسلامية المعاصرة رجال أغرار ، لهم قدرة غريبة على نقل الأخطاء وتبنيها وبعثتها في طريق نهضتنا .

(٢٢) لأبي حامد مواقف إيجابية مع بعض حكام عصره ، ورسائل مشهورة ، وهي لا تكرر

وقد استيقنت أن زهانية الاستعمار العالمى يستبشرون بهذا الصنف من الموجهين الأغبياء ، وربما مكنوا لهم ورحبوا بهم ، فليس أسعد لأعدائنا من شعب يفتصب قيادته سارق زعامة ، وليس أسعد له من بيت تديره امرأة جهول ، وليس أسعد له من متدينين يستريحون لهذه الأوضاع ، ويحيون فى ظلها أنصاف بشر ، ويرغبون الناس فى ذلك على أنه الإسلام ...

أثر الأهواء والعصبيات على الدعوة الإسلامية .

العصية الأوربية : خصومة غير مشرّفة

عالمية الإسلام ليست موضع جدال ، وقد هض السلف الأول بواجبه في نقل الدين من الجزيرة العربية إلى ما وراءها من بروجبر ! وعرفت دولة الإسلام الأولى أنها أمة ذات رسالة كبرى فكرست قواها المادية والأدبية لإبلاغها ... وأصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا امتداداً لنوره وطهره وشجاعته وجهاده ! وقد زوّدهم القرب منه بقدر هائل من الروحانية والتضحية وطلب الآخرة والترفع عن الدنيا ومغائرها ، فلما اصطدموا بالفضلال الجاثم على صدر الأرض من قرون استطاعوا فلّ حذّه ، وكسر قيده ، وإطلاق الجماهير العانية تعبيرها كيف تشاء !! وما كان إلا أصحاب محمد مَن يقدر على هذه المهمة الصعبة !

سيقول السفهاء من الناس : خرجوا من جزيرتهم مهاجمين ، وما كان هذا يجوز !

ونقول : مَن الذين هاجمهم أصحاب محمد ؟ في حياة محمد نفسه قاتلوا الرومان في مؤتة وتبوك فمن الذي جاء بالرومان إلى مؤتة وتبوك ، وهى بلاد عربية ؟ إن الرومان أورييون احتلوا سورية ومصر وغيرها ، وبسطوا سطوتهم على شماليّ الحجاز ، فكيف يعتبر اجتياحهم لأراضى الآخرين دفاعاً ، وإحراجهم من هذه الأراضى عدواناً ؟؟

إن دراسة التاريخ بهذا التبجح ديدن الأوربيين ، وهم الآن ماضون مع طبيعتهم في عدّ العرب الذين يقاتلون « إسرائيل » إرهابيين مهاجمين معتدين ! فإذا قلت لهم : إن هؤلاء العرب هم أصحاب الأرض وسكان مدنها وقرائها من قرون سحيقة وإن هؤلاء اليهود طارئون من أيام ، قدموا من بولندا وروسيا وانخلترا

وأمریکا ، ولا حق لهم هنا ... قالوا في تبجح : ولو ...

أهناك شيء غير القوة يمحو هذا الطاغوت ؟ إن القتال الذي أعلنه أصحاب محمد على الرومان والفرس هو أشرف قتال سجله التاريخ ، وهو وحده الذي أدب المتكبرين وأنقذ المستضعفين وليت هذا القتال - ببواعثه ونتائجه - يتكرر في الدنيا ليحق الحق ويبطل الباطل .. أيعنى ذلك أن القتال وظيفة النبيين والحواريين ، أو أنه حرفة أصحاب محمد في العالمين ؟

كلًا بداهة ، فقد شرح الله الغاية من رسالة محمد ، فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ * وشرح عمل المسلمين بين الناس ، أو النظام الذي يقيمونه فقال : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٣)

فالدولة الإسلامية تفعل الخير وتدعو إليه ، وتعلم الحقيقة وتنشر أدلتها ، وتأمر بالمعروف في الداخل والخارج ، وتنهى عن المنكر كذلك ، وهى مع السلام ضد العدوان ، ومع العدل ضد الظلم ، ومع الإنسانية ضد الحيوانية ، وعندما قاتلت كانت محكومة بقول الله لها : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢٤) .

والحروب الأولى في تاريخنا تمحضت لله ومشيت في سبيله ، وفوجئت الشعوب السجينة داخل المصيدة الرومانية يقوم اكتفوا بتقليم أظافر « الاستعمار » القديم ، ثم ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٢٥) ، واختفى كبر الرومان ، وسلبهم ونهبهم ، وارتفع نداء « الله أكبر » فعلم الناس أنهم أحرار ، وأن الأرباب السابقين سقطوا .. ! فشرعوا يدخلون في الإسلام أفواجا أفواجا ، وإذا شمال إفريقيا كله وغرب آسيا وشرقها حتى الهند والصين يتدفقون على الدين الجديد ... إن الفتوح العقلية والروحية ، كانت آلق شعاعا ، وأقوى اندفاعا من النجاح العسكرى ، وما فعله الأصحاب والأتباع أئسم بطابع الخلود ، فالأقطار التي حرروها هى كهف الإسلام إلى اليوم ، وهى التى تشببك فى كفاح

* سورة الأنبياء ١٠٧ (٢٣) سورة آل عمران ١٠٤ . (٢٤) سورة النقرة ١٩٠

(٢٥) سورة الحج ٤١ .

ثقافى وسياسى . مع الاستعمار الجديد ، ومع فداحة ما تحملت فهى ترجو الآخرة ، وترقب النصر الحاكم .

والذى نلاحظه أنه مع انصرام عهد الراشدين لم يحسن الحكام الرسميون - فى الأغلب - العمل للدعوة الإسلامية ولم يُنمُوا أجهزتها ، أو يلبوا مطالبها ، وتركوا للكتل الشعبية أن تقوم هى بهذا العبء كله أو بعضه ، وقد يعاونونها أو يهادنونها ! أما أن يرسموا السياسة ويتابعوا التنفيذ فلا !!

قد يقول قائل : هذا تَجَنُّ على خلفاء أمية والعباس والعمانيين ، فقد رفعوا راية الدين وقاتلوا تحتها بقوة ! وماذا عساهم يفعلون مع أناس عرفوا الإسلام وعقائده وفضائله ، ومع ذلك ﴿ جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ * ؟ إن الهنادك قد يذبحون عشرات ومئات من المسلمين لو أن واحداً منهم ذبح بقرة ! هل يجدى مع هؤلاء إلا السيف - ويمضى المعترض فى مساءلتنا قائلاً - :

وهل نسيت موقف أهل الكتاب المشحون بالبغضاء ؟ إن كراهيتهم للإسلام ترشح من معين لا يفيض ! وجمهرتهم تودّ لو تُخسِفَ بنا وخلت الأرض منا .

هؤلاء الصليبيون ما إن تمكّنوا قديماً من دخول « بيت المقدس » حتى ذبحوا سبعين ألف مسلم ، وحديثاً احتلوا بالجيش اليهودى ، وقتلوا بأفحش الأساليب أربعة آلاف فى مخيمات الفلسطينيين بصبرا وشاتيلا .. ولم تتحرر الجزائر من أرجاسهم إلا بعد أن ضُحّت بمليون ونصف شهيد كى تستعيد المساجد التى حولها الفرنسيون إلى كنائس ، وتستنقذ جيلاً من البشر سُرقت عقائده ومعاله جهرة واغتيالاً ...

لقد اشترك « المعمرين » الفرنسيون ، ورجال الجيش ، والشرطة فى قتل قريب من أربعين ألف مسلم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فى مدينة « سطيف » . لأن الأهالى نادوا بالاستقلال ، وأملوا خيراً فى موافق هيئة الأمم ثم جاء دور اليهود ليببّدوا شعباً وينشثوا على أنقاضه دولة لهم تحت سمع المؤسسات العالمية وبصرها وبين موافقتها ومعاونتها . إن القرآن - فى معرض التعجيب والإنكار - يتساءل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى

بِاللَّهِ نَفِيرًا ﴿٢٦﴾ فما اللوم الذى يراد توجيهه لخلفاء ردوا الوحوش عن حماهم ،
أو كسروا شوكتهم قبل أن يبدعوا العدوان ؟

الدعوة قبل القتال

والجواب أنى أدرك طبائع المخاصمين للإسلام وأن تاريخهم لا يشرف على
اختلاف الليل والنهار ، ومع ذلك فإنى أؤثر التمسك بتعاليم دينى فى أسلوب البلاغ
وطريقة الدعوة ! لن أسأم من الإطناب فى الشرح والإفاضة فى البيان والاحتياط
على الوصول إلى القلب الإنسانى من كل طريق ...

أريد أن يكون علم أعدائى بالإسلام كعلمى أنا به ، مصداق قوله : ﴿ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذُنُكُمُ عَلَى سَوَآءٍ ، وَإِنْ أَذْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٧)
والناس تمجدهم عن الحق ظلمات شتى ، قد يعيشون ويموتون فيها ، ونحن
المسلمين مكلفون برفع المصباح حتى يتهدى الحيارى ، وأخشى من مساءلة الله
لنا : لماذا عاشت أم دون أن تعرفنى وتعرف كتابى ؟ ودون أن تبصر سبيلى وتتبع
رسولى ؟؟ وقد اخترتكم لتقوموا بهذه الوظيفة ، وتنهضوا بأعبائها ؟؟

إن الدعوة تسبق القتال ، والدعوة ليست كلمة عابرة أو خدعة ظاهرة ، ثم
تنشب الحروب ، كلا ، إنها بيان وانتظار ومعاناة وأخذ ، ورد ، ونقاش شبه ،
وبحث قضايا وتقديم عون ، وقطع الأعذار أمام الله والناس ...

قلت لنفسى : أين كانت أجهزة الدعوة لتعرض على المبوذيين فى الهند - وهم
عشرات الملايين - حقوق الإنسان فى أطواء كلمة التوحيد ؟ إن أولئك المبوذيين
كانوا يُعَدُّون دفساً ، وقد آثرت نبيلة هندوكية أن يموت ابنها غرقاً ولا ينقذه أحد
المنبوذين ، لأن جَسَدَ ابنها إذا مسه هذا المنبوذ تلوث أو تنجس ، والموت خير من
حياته بعد هذا المس ... !

أين كان الدعاة ليقولوا للهنداك كلمة عمر : « متى استعبدتم الناس وقد
ولدتهم أمهاتهم أحرارا .. » ؟ وليقولوا للمنبوذيين : إن المؤمن لا ينجس ، وإن
البشر كلهم إخوة كما قال محمد رسول العالمين ؟؟

إن تجمد الإسلام فى الهند وإن أرشد ثلث السكان أمر عجب ، وليس أعجب

(٢٦) سورة النساء ٤٥

(٢٧) سورة الأنبياء ١٠٩

منه إلا توقفه في الصين ! وإذا كانت الاشتراكية الماركسية أو الماوية قد وحدث
ألف مليون من البشر ، لأنها داوت تفاوت الطبقات وأرامت الجوع هناك ، فمن
كان يعرف هؤلاء أن عمر بن عبد العزيز بحث في أرض الإسلام الواسعة عن فقير
يأخذ الزكاة فلم يجد ، فاضطر إلى أن يشتري بها عبدا ويحرره ، وهذا من
مصارف الزكاة !! إن الدعاة في هذه البيئات ، يعالجون أدواءها ، بما يحسم
الآلام ، ويرفع قدر الإنسان ويربط الناس بربهم ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ
وَعَامَتَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ *

وليست الدعوة وعظا فارغا ، وبلاغا غامضا ، ... ثم يكون القتال كما يتصور
البُله من علماء الدين ...

وتلفتُ غرب الدولة الإسلامية الكبيرة وشمالها ، فوقفتي الحرب المزمنة بين
الروم والمسلمين أو بين الفرنجة والعرب .. لقد خرج الرومان من الشام بعد
هزائمهم الساحقة أمام أصحاب محمد ، تاركين وراءهم ذكريات سوداً بين
النصارى الذين يخالفونهم في الفكر اللاهوتي .. وليس للوجود الروماني بالشام
سناد من عقل أو نقل فما صلة دمشق والقدس ببيزنطة أو روما ؟ ومن الذي منح
القوم حق استيطان هذه البلاد ومزاحمة أهلها عليها ؟ الواقع أنها صفاقة أوربية
قديمة جديدة ، لقد خرج الفرنسيون الصليبيون من الجزائر بعد مذابح طافحة
بالوحشية ، وهم بعد ما خرجوا منها لا يزالون يحجون إلى العودة إليها ، وكذلك
كان الروم بعد ترك الشام فإن رغبتهم في العودة من حيث طردوا ظلت تراودهم ،
وتجعل القتال موصولا على حدود الدولتين الإسلامية والنصرانية ، وكان
للمسلمين رباط دائم على تلك الحدود ، كما كانت الحرب بين كروفر في جزر
البحر الأبيض كلها ...

هل كان هناك بديل عن هذه المأساة الدائمة ؟ رأيي : نعم ! كان يمكن إقامة
علاقات تجارية ، ثم علاقات ثقافية ، كما كان يمكن استقبال زوار القدس بترحاب
له ما بعده ، لا سيما أننا ما وضعنا عائقا أمام النصارى الذين يقيمون مراسم
دينهم !

والحق أن أمتنا ما تنكص عن هذه الخطوة ! لكن رجال الدين والسياسة في

أوروبا كانت تحركهم ضغائن لا تبرد نارها ، فهل كان الموقف الأوربي من وراء عطل أجهزة الدعوة عندنا ؟ وعدم انسيابها بين الكارهين للإسلام ، الشائمين لمحمد ودينه بسفاهة منكرة ؟ الأمر يحتاج إلى تفصيل .

كانت الحكومة في دولة الخلافة مسئولة عن الدعوة الإسلامية ، وكان رجالها يرون أنفسهم قوامين لله ، يحاربون المعصية ، ويزرعون الطاعات ، ويضربون المثل بذواتهم في العبادة الخالصة ، كأن فيهم قوله تبارك اسمه : ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (٢٨)

والفارق كبير بين حكم يرى نفسه مسئولا عن الدين وحماته ونشر تعاليمه وبين حكم يتوسل بالدين لمد سلطانته ودعم أركانه .

إن الوسيلة قد تترك بعد بلوغ الهدف ، أو قد يستبدل بها غيرها إن سدد مسددا ، أما دولة الخلافة فقد كان الإسلام منيحها وهدفها ، وكان الخلفاء يرون أشخاصهم آخر ما يكثرث به ! كانوا ربانيين ينشدون الآخرة ! وكانوا علماء يعرفون كيف ينصرون دينهم في كل ميدان ..

والخلفاء الراشدون والأصحاب العظام من حولهم هم الذين جعلوا عالمية الإسلام حقيقة واقعة بعد ما كانت مقررا نظريا أو بشريات تتلى في الكتاب الكريم ...

ولولا دسائس اليهود والمجوس التي نجحت في قتل عمر وعثمان وعلي لكان للأرض مستقبل آخر ، ولانتهى أجل الضلال في الدنيا ، ولكن لله قدرا آخر ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلَئِذَاكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (٢٩) وقد بذل الأمويون والعباسيون والعثمانيون جهوداً كبيرة ليقولوا للناس : إنهم يقومون بعبء الخلافة الراشدة ، وإنه إذا تغيرت الوجوه فلن تتغير الأعمال .. أكانوا بينهم وبين أنفسهم صادقين ؟ مأتسك في أن فيهم من أخلص لله سريره وأسلم له وجهه وجاهد في سبيله ما استطاع ! ولست دياناً للخلق أبث في مصابيرهم عند رهم ، وإنما أكتب ما أكتب التماس عبرة ، وكما أجنب الصحوة الإسلامية عثرات قديمة ، وهل يُدرس التاريخ إلا من أجل ذلك ؟

(٢٨) سورة الأنبياء ٩٠ .

(٢٩) سورة هود ١١٨ ، ١١٩ .

إن موجة الفتح التي أسهم فيها التابعون ، مضت لمستقرها في العهد الأموي ثم توقفت لأمرها ، أما الاهتمام بمستقبل الدعوة في أرجاء العالم ، واكتشاف الأساليب المناسبة لإنجاحها ، فقد أخذ يتضاءل من الناحية الرسمية أو يأخذ طرقاتاً مسدودة .. !

ما السبب ؟ أشخاص الخلفاء أنفسهم ، والطريقة التي جاءوا بها إلى منصب الخلفاء ! وسرعان ما تحوّل معظم نشاط أولئك الخلفاء إلى المحافظة على الحكم في ذرايعهم ، وإلى مكافحة الفتوق التي يحدثها الناقمون والمعارضون ... ثم جاء العثمانيون فقلّدوا من سبقهم ، ولم لا ؟ .

والتأمل في القيمة الذاتية للأشخاص الذين وُلّوا أعظم مناصب الدنيا يشعر بالحسرة ...

إن بعض خلفاء بني العباس لو بيعوا رقيقاً ما جاء أحدهم بشمس طائل ، ولكن عنجهية العرب فرصتهم على الإسلام ليقودوه بضعة قرون ، فماذا حدث ؟ قبعوا في قصورهم ، واغتصب السلطة منهم أمراء ووزراء من أجناس أخرى ، ولقى أغلبهم مصيره على شروجه !!

الدعاة يقومون بدور القيادة

لكن الدعوة - بطبيعة الإسلام السيالة - لم تتوقف ، لقد انطلق الفقهاء ، والمربون ، والتجار إلى شرق آسيا وجنوبها ، وإلى شاطئ الأطلس الشرقى في إفريقية وجنوب الصحراء الكبرى ، ولم يكن هناك فتانون خطرون بعد انهزام الفرس والرومان وما بقى من أمراء يصدّون عن سبيل الله سهل إقناعهم أو اتقاء شرهم ...

ونشأ وضع عجيب عقم ذلك الانسياب الباهر ، فقد دخلت أقطار في دين الله لم تعرف عنها بغداد أو القسطنطينية شيئاً ، وماذا تعرف هذه أو تلك عن « الفلبين » « والملايو » « وأندوسيا » ؟

إن أجهزة الدعوة المركزية مشلولة في هذه العواصم ! والغريب أن الصليبية العالمية يقضى لم تقف ساكنة !

لقد انتهزت الفرصة ، وأغارَت على هؤلاء الموحدين ، وهى منذ قرون مشتبكة معهم فى حرب حياة أو موت ، والعرب ، ومن هذا حدوهم من الترك لايسدون لإخوانهم يدا ، ولا يدفعون عنهم كيذا ...

بل إن المسلمين فى القرن الرابع ، وفى ظل الخلافة العباسية المعتلة المختلة تحوّلوا إلى فرق تتقاتل على السلطة وتتنازع على الإمارة ، يكيد بعضهم لبعض ويلعن بعضهم بعضا ، ومازالوا كذلك حتى جرفتهم الحملة الصليبية الأولى ، ثم غارات التتار التى أسقطت بغداد ، وقتلت خليفتها المسكين ... !!

لم تستفد الدعوة الإسلامية شيئا يذكر خلال الحكم العباسى ، بل إن سوء التطبيق لتعاليم الإسلام نال من قدرتها على الانطلاق البعيد ..

حكام يتهارشون على الدنيا ويتقاتلون على المناصب ، أجهرة الشورى صفر ، العدالة الاجتماعية مضطربة ، قد تكب بعض الأقطار بمجاجعات فلا تجد العوث ، العلم الدينى احصر فى فلسفات كلامية لاتمسّ القلوب ، أو مسائل فقهية ليس لها عند الله وزن ...

ومعروف أن أحناسا شتى دخلت فى دين الله من الهنود ، والفرس ، والروم ، والترك ، والكرد ، والرنوح ... الخ . وكان المبروض أن تنصهر كلها فى بوتقة الأخوة الإسلامية ، لكن مادام العرب يتسمحون بعرقهم فلماذا تسكت الأحاس الأخرى ؟

إن العالم - وراء دار الإسلام - لم ير فى الطريقة التى تحكم دولة الخلافة ما يعجب ، بل رأى ما ينمر ، وقد سقط العباسيون كما سقط من قبلهم الأمويون ليؤكدوا حقيقة علمية وتاريخية ثالثة ، وهى أن العرب لايتشدّ كياسه إلا الدين ! فإذا خرجوا عليه تيقظت فيهم جاهليتهم فهلكوا ...:

وقد أعلنت هذه الحقيقة عن ثنائها وأطرافها سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس واندحار الدويلات التى تحلفت معها ' - هو الداء نهم مسعود إلى السلطة ، وتعارك وحشى على الإمارة ، وارتداء للدين على جسد أجرب ، ومتاجرة بفقته الفروع لا تنطلى على الله ، لأن معاهد الدين وقواعد الأخلاق واهية ! « أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاعون ! »

وبعد سقوط الخلافة العباسية بقرن تقريبا ، كان جنس آخر قد اعتنق الإسلام واعتزّ به وأنشأ دولة تجاهد من أجله ، اتجهت صوب الأناضول بقوة ، وقاتلت الروم ببأس ، ومازالت في حرب مظفرة معهم حتى أخرجتهم عن آخرهم من آسيا وظلت تطاردتهم في شرق أوروبا بعد ما استولت على القسطنطينية ... تلك دولة الأتراك العثمانيين ، التي تسمى سلاطينها بخلفاء الإسلام !

ولست كارهاً للترك ، ولا ناسيا ما أسدوه للإسلام من أياد ، ولا متهما الشعب التركي بما هو منه براء ، فهو شعب مؤمن جياش العاطفة شجاع مقدم .

لكن الإسلام دين عربىّ الوحي ، كتابه عربىّ وسنته عربية وثقافته الفقهية والخلقية عربية ، وقد رفض الترك أن يتعربوا فكيف يستطيعون مع هذا الرفض قيادة الرسالة والدعوة ؟؟

كان يمكن أن يظلوا كما يريدون ، ثم يستعينوا بالعلماء العرب ليسشروا الإسلام ، وينشئوا أجيالا جديدة عليه ، بيد أنهم لم يفعلوا ...

ولو أرادوا لاستعانوا بمصر وفيها الأهرم ، وجعلوا من القدرة العلمية عدد المصريين وغيرهم ما يعزز فتوحهم ، ويؤسس للإسلام مجتمعات واعية هادية ... إنهم لسوء الحظ لم يفعلوا ، بل ولى الحكم السلطان سليم الأول ، وكان رجلا رقا سفاحا مضطرب المزاج فأغار على مصر وخرب مستقبلها بضعة قرون ...

وبديه أن يعجز الأتراك عن نشر الدعوة خارج أرض الإسلام ، بل إنهم داخل أرضه لم يكن لهم كبير اهتمام بدور العلم ، وكانت النتيجة الكئيبة أن رانت على الأمة الإسلامية كلها ظلمات بعضها فوق بعض !

فلما احتاحتها الاستعمار العالمى ، الصليبيّ ثم الشيوعيّ ، كانت الأمة كالعريق الذى يحاول الحجة من الطوفان ، والشاطئ أمامه بعيد بعيد ..

ونسأل نحن - بعد هذه النظرة العاجلة الشاملة - هل استفاد العرب من الماضي وقرروا إخلاص العمل للإسلام ، والبعد عن طباعهم القديمة ؟ وترك الاعتراض بالسب ، والتعلق بالسلطان ، والشره في حب الدنيا .. كلا .. إن طين الضلال

القديم ملأ الآذان مرة أخرى ، وها نحن أولاء نسمع عن بعث عربى وقومية
عربية !!

كل ما هنالك من فرق ، أن العرب الأول كانوا يرفعون راية الإسلام ، أما
عرب هذه الأيام العجاف فهم ينكرون الإسلام أو يتنكرون له ! إن طينهم يشبه
طين الذباب فى أماكن القمامة ومجامع الأقدار .. والأمر يحتاج إلى مقادير كبيرة
من المطهرات حتى تنجو أمتنا من هذا البلاء

قصور الحكم وأثره في الاضطراب العلمى

كانت دولة الخلافة الراشدة نادية الحرص على سلامة المعرفة التى تصل إلى الجماهير ، وقد رأينا على بن أبى طالب يرقب المساجد ، ويتسمع إلى ما يلقي بها من دروس ، وقد أمر بطرد أعداد من القُصَّاص المتحدثين إلى العامة ، واستبقى الحسن البصرى وحده .. ! إن الميدان الدينى مرثع حصب للمشعوذين والخرافيين ، ولا يجوز أن يستخفى أولئك فى لباس الوعظ والفقہ ليفسدوا الأفكار ، ويسحرفوا بالناشئة . وقد كان عمر يقظا إلى حدِّ العبرة نحو كل ما يمس العقيدة والسلوك ، وكان يوصى أمراء الجيوش : بجمع الناس على كتاب الله ، والإقلال من الأحاديث النبوية .

والسبب فى ذلك أمران : أولهما خوفه من رواية الواهيات والترهات . والآخر خوفه من عدم فهم الحديث على وجهه ، واختلاف الأنظار مع اختلاف المرويات .

وقد رأيت شبابا غصّا يتلقى بعض الأحاديث ، وهو دون مستواها ، ويشعل بها خلافات مخوفة العقبي ، وقد يكون الجيش مكلفا بدخول مدينة ، أو بلوغ هدف فإذا هؤلاء يحدثون فتنة حول قصر الثوب ، أو الصلاة فى النعل ، أو الشرب عن قيام فيصاب الإسلام من غبائهم ..

لكن الأمر تغير على نحو ما بعد انتهاء الخلافة الراشدة ، واستيلاء خلفاء قاصرين على دفعة الحكم .. وليس يعنينا الآن التغير الطفيف الذى وقع فى العهد الأموى ، ووجد للفور من يقوم بحق الله فى إصلاحه ، وإنما يعنينا ما وقع فى أيام الخلافة العباسية بعد أن استقرت الأمور - كما يقال - وبدأ عهد الحضارة .. ! لقد تدبّرت قضية الترجمة التى نقلت إلى لغتنا العربية تراث أمم أخرى أهمها اليونان ! أكنّا - نحن المسلمين - فقراء إلى هذه المعارف المنقولة ؟

وأبادر إلى القول بأنى منهموم إلى الاطلاع على كل ما لدى الآخرين من علم ،

وأنى لا أرخص حكمة جاءت من عدو ! ولا أزهد في حصاد الذكاء البشرى
مهما كان موطنه .. ! بيد أن ذلك لا يعنى تأخير ما لدى ، واستقبال الجديد
بحفاوة تنسى الأصل ..

إننى أعرف الله عن اتصال ، فلدى نبوة وبين يديّ وحى !!
وغيرى يعرف الله عن استدلال ، لأنه محروم من العلاقة التى ظفرت بها ،
واستدلّاه تارة يقوم ، وتارة يكبو ! فكيف أزاحم القديم الأصيل ، بدخيل
خفيف الوزن ؟

يرى أرسطو أن الله خلق العالم ، وبعد أن خلقه تركه ، وانصرف عنه ،
وانقطع تدبيره له^(١) فهو لا يدري عنه شيئا .

هل هذا اللغو ينقل ويوضع بإزاء قوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّه يُمْسِكِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾^(٢) ..

لقد استغربت من شوقى رحمه الله أن يستدل على عظمة « التوحيد » الذى جاء
به محمد عليه الصلاة والسلام بأنه سبق أن نادى به الفلاسفة اليونان !!

بنيت على التوحيد وهو حقيقة نادى بها سقراط والقدماء

لقد كان المضروب من الخلفاء العباسيين أن يترجموا الإسلام للناس فى كل قطر
لا أن يترجموا للمسلمين أفكار وخیالات الأمم الأخرى !

إن عالمية الرسالة الخاتمة تفرض على خلفاء محمد - لو كانوا ضادقين فى هذه
الخلافة - أن يترجموا حقائق الدين وأحكامه السياسية والاجتماعية ، ومبادئه
الروحية والخلقية ، وأن يضعوا جوائز سنية لمن يقوم بهذا الجهد ، ويذهب به فى
آفاق الأرض ليشرح صدوراً وينير عقولاً ... لكن هؤلاء الخلفاء الورثة لم يكونوا
على مستوى المناصب التى ختلوها فكان ما كان ...

وندع الحديث فى مضار هذه الترجمة على فكرنا الإسلامى النقي ، وننظر فى
أمر آخر ، لا نزال نضار منه إلى اليوم ..

الإسلام مهّاح كامل يوضح العلاقات الآتية :

علاقة المؤمن بربه على أساس من التوحيد المطلق والسمع والطاعة والاستعداد

للقائه سبحانه بتسامٍ وطية .

علاقة المسلم بالدولة التى تحكمه ، كيف يختار الخليفة ؟ كيف تم الشورى ؟
ما نظام النصيحة والتواصى بالحق والتعاون على البر والتقوى ؟

علاقة المسلم بالمجتمع أول حلية فيه الأسرة .. كيف يتم بناؤها وتؤدى
واجباتها ؟ كيف يتعامل المسلم مع الآل والأقارب والحيران ، وسائر الناس ؟ ما
نظام الملابس وحدود الاختلاط ؟ كيف نعتاد المسجد ؟ كيف تتلقى الدروس فى
شتى المراحل .

علاقة المسلم بالبيئة والحياة الدنيا : كيف نقوم بأعباء المعايشت المتنوعة ؟ كيف
توزع مواهب الناس على مرافق الحياة ؟ كيف مملك الحياة لنسخرها فى إبحاح
رسالتنا ؟ ما هى الواجبات الموقوتة وغير الموقوتة التى محاهد فى سبيلها . ؟
ومن السهل اقتناس الآيات والأحاديث التى تشرح ذلك كله ، وتعرف
المسلم أين يضع قدمه ، وأين يولى وجهه ؟؟

وتقديم هذه الحقائق فى خلاصات علمية مسئولية كل عامل للإسلام فى أى
ميدان ثقافى أو سياسى .. ولا يحور أن يمتد عنصر على حساب عناصر أخرى ،
فإن النسب فى عناصر الغذاء المعوى كالسب فى عناصر الغذاء المادى ، لابد من
رعايتها .. كما أن إهمال عنصر ما ، أو استبعاده مرفوض فإن شُعب الإيمان كالعقاقير
التي يتكوّن منها الدواء لا يتم الشفاء إلا بتحميمها كلها ..

والدى حدث فى تاريخ ثقافتنا ، يحتاج إلى نظر ومراجعة ، حتى لا تطول
شكائنا من حلال ملحوظ أو نقص قائم .

القصور فى المنهج ... خطر داهم

إن الاستبحار العلمى مصى فى طريقه قبل الوفاء بصورة المنهاج الكامل الذى أشرنا
إليه آنفا ، وقبل كتابة خلاصات وحيزة له ، للتعليم والدعوة فى الداخل
والخارج .

وشأ عن ذلك أنك ترى دارسا لعلم الكلام ، أو لعلم الفقه ، متمكناً من
قصايا العلمين المهمين ، ولكنه لا يحسن إلا الجدل وشقيق الفروع ! أما

استحضار الخشوع ، واستشعار جلال الله فإن نصيبه منهما قليل ، ذلك لأنه لم يلق التربية النفسية المكافئة لما نال من معارف أخرى ..

وشأ عن ذلك أن ترى امرئاً ماهراً في الأحاديث وقبولها وردّها ، بيد أن بصره بالقرآن قليل وحرته بما فيه من توجيه وحكمة لا تسرّ ، وقد يكون الأمر بالعكس فترى مفسراً يحسن إعراب الحمل ، وتقرير بعض الأحكام مع عملة شديدة عما صحّ من سنن في القضايا التي يعالجها ...

وقد ترى مطلعاً على جملة من علوم الدين ، بيد أن إدراكه للبيئة من حوله قاصر ، وإدراكه للكون والحياة أشد قصوراً ، ومن ثم يصدر أحكاماً وفتاوى تصيب الدين في مقاتله .

وأعرف أن الحكم الفردى جمّد عدة فرائض سياسية ، ومالية ! وسيرّ الفقه بعيداً عما يمسّ استقراره ! كما أعرف أن بعض البيئات علّنت تقاليداً على تعاليم الدين ، كما حدث في بعض الشئون السائية .. لكن الإسلام ظل وسوف يظل مصبوط المصادر بقى المتابع ، وأن أصحاب الفطر السليمة ، والآراء الزهية قادرون على العودة إليه ، والاستمداد منه دون عائق محترم !!

وأنفى بقوة كل طن أنى انتقص رجالنا ، فإسى شديد الإعجاب والولاء لأئمة الفقه ، والتفسير ، والحديث ، وقد تابعت وتدبرت الكثير مما كتب في علوم الكلام والتصوف^(٣١) والأخلاق ، ونفعنى الله بما شاء من تراث السلف والحلف غير أسى وحدث الحقائق هنا وهناك ، فلم ألزم مدرسة واحدة ولم أر لأحد عصمة .

وأؤكد ما قلته : إن القراءات غير المتوارنة تحلق فكراً مشوشاً ، وإن الإيعال في دراسة ما دون قاعدة مشتركة من علوم أخرى لا يعطى ثقافة سليمة

وقد بلوت شيوفا يتكلمون في الإسلام وقلوبهم وجلة من التعرض لسياسة الحكم والمال ، بل قرروا - من غير أيّمان مغلظة - ألا يمسّوا هذه الناحية .

، وآخرين لا يعرفون درة من ضغط التقاليد الشرية على التعاليم السماوية ، فهم

(٣١) المقصود التصوف المجاهد العامل القى من الدع والشوائب ، أى الذى لايزيد عن كونه مجاهدة للنفس وجهاداً في سبيل الله .

يطلقون دعاة إلى الإسلام ، والحقيقة المرة أنهم يدعون إلى معالم مجتمعهم البالى ، ومورايثهم الهشّة ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ..

كما بلوت شبانا غرورهم أكر من تفكيرهم ، يستمعون إلى أولئك الشيوخ دون مراجعة .

وشعرت بانكشاف العجز العلمى عند هؤلاء جميعا عندما زار الأستاذ « حارودى » القاهرة ودول الخليج ، وقابل نمرأ من علماء الدين التقليديين .. إن الرجل اعتنق الإسلام بعد ما أحسّ إفلاس الحضارة الغربية ، واستوحش من حوائثها الروحى ، وشرودها الفكرى ، وبعد ما درس الإسلام دراسة حير بالأديان والفلسفات ، عارف بالحصارات البشرية وأسرار اردهارها وانهارها ...

وقل أن أذكر ما لقي فى عالمنا العربى أسوق أجزاء من محاضرة تبىء عن فكره وأمله ، ومعرفته وإحلاصه ، ألقاها تحت عنوان « الإسلام وأزمة العرب »

قال : لى أتحدث ها عن الإسلام بصفة عامة ، ولا حتى إسهامه - المحمود - فى الحضارة الإنسانية ، وإنما أتحدث عن الإمكانيات الجديدة لتوسعه وانتشاره اليوم فى عالمنا الغربى ، وعن الأسباب - المتصلة بروح العقيدة الإسلامية ذاتها - التى أتاحت مثل هذه الإمكانيات .

إن الإسلام عند مولده أنقذ العالم من الانحطاط الشامل ، فقد كانت الامبراطوريات التى تسود العالم مفككة منحلة ، سواء الفارسية أو الرومانية ، أو أرجاء الهند ، أو الشمال الإفريقى أو ممالك « الفيزقوط » بأسبانيا ... تم جاء القرآن معلنا بقوة علوّ الخالق ومجده الذى تفرد به ، وبانيا على هذه الوحدانية نوعا جديدا من البتيرية المتساوية فى عبوديتها لله سبحانه .

وبذلك منح الألوף المؤلفة من الناس ، وعيا بمدى الكمال الذى يحجروه ، عندما يعرفون ربهم ويرتبطون به ، إن « الربانية » هى الشرف الحقيقى للإنسان ، والبُعْد الذى يجتازه ليؤدى رسالته فى الحياة ...

وإسلام اليوم قادر على الإسهام بهذا العنصر الغالى لتحصين الإنسانية وحياطة مستقبلها ، وحمايتها من المنزلق الذى يوشك أن يبتلعها ..

إن المدنية الحديثة قضت على التسامى الروحى ، وأيقظت الأثرة الحيوانية ،

وأقرت مخطاىم الحياة يمتاز بجنون التنمية وريادة الإنتاج ثم تسخير هذه النتائج الكبيرة لخدمة أغراض خسية ..

وماذا نرى بعد انفراد الحضارة الغربية بقيادة العالم ، ومرور خمسة قرون على هيمنتها المطلقة ؟ إننا نلخص الجواب فى أرقام ثلاثة :

« بعد تخصيص ٦٠٠ مليار دولار سنة ١٩٨٢ للإنفاق على التسليح أصبح كل ساكن من سكان الأرض تحت تهديد ما يعادل أربعة أطنان من المتفحرات ، وفى الوقت نفسه تم توزيع الموارد والثروات - وقد تكاثرت جدا بفضل التقدم العلمى - على نحو مثير للعجب فى هذه السنة ١٩٨٢ ، هلك خمسون مليون سمة فى العالم الثالث بسبب المجاعة وسوء التغذية .

أما صانعو الحضارة فهم متخمون ..

ومن الصعب أن نسمى تقدما ذلك المسار التاريخى الذى سلكته الحضارة الغربية .

إن كدح البشر منذ طهروا على وحه الأرض مُهدّد بالتوقف ، بل لقد أصبح ميسورا لقلة من الناس أوتيت تفوقا صناعيا رهيبا أن تمحو كل أثر للحياة ..

هناك رغبة عمياء فى زيادة الإنتاج ، إنتاج أى شىء دون تسأؤل : لمن ؟ ولماذا ؟ ولعل الواقف وراء دولاب الصناعة لم يرفع نظره إلى السماء يوما ، أو يتذكر ربه فى لحظة رشد !

وعلى الصعيد السياسى قامت علاقات داخلية وخارجية تتسم بالعنف ، محور الصراع فيها مآرب الأفراد والطبقات والأمم ، ونزوع عام إلى الهيمنة وفرض الذات ...

أما الصعيد الثقافى فيمتاز بفقدان المعنى والغاية ، قامت « تقنية »^(٣٢) غايتها التقنية لذاتها وعلم يبحث فى العلم لذاته ، وفن يخدم الفن وحده ، وحياة تتحرك دون هدف ..

وفى مجال العقيدة اختفى مفهوم التسامى ، والاستعلاء على الغرائز الدنيا ،

(٣٢) القدرة الصناعية المتفوقة ، والكلمة شائعة فى البلاد العربية ، ويعكس تعريبها

الكلُّ أُخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ليس للإنسانية صبغة طهور ، ولا اتجاه إلى الله .

الربانية أسطورة من آثار ماضٍ سحيق ، ولمن شاء أن يمضي هائماً على وجهه غير مرتبط بنظام نفسه عتيد !

يقول^(٣٣) الأستاذ رجاء جارودي : « إن الثقافة المدعية المعروفة التي تعتمد عليها هذه الحضارة ترى حيناً حصر الحياة في « الضرورة والصدقة » كما يرغم أحد علماء الأحياء وترى حيناً جعلها عاطفة خوفاء لاطائل تحتها ، كما كتب أحد الفلاسفة ، وترى حيناً سستها إلى اللامعقول كما وصف أحد الروائيين ، ولعل الإسفاف بلغ منتباه فيما أفادت الصحف ردحا من الرمن عن موت الإله^١ وموت الإنسان وموت كل شيء كما يردد دعاة العدم والتمنبثون به ... !!

إننا لا نعرف حضارة أغفلت إعفالا تاما : التساؤل عن معنى الحياة والموت مثلما فعلت الحضارة الأوربية الحالية .

والثقافة انادية التي تحتضنها تقوم على أربعة مبادئ رَحَّت بها - بعد خمسة قرون مجموعة - إلى طريق مسدود ، وإذا استمررنا فيه فسيستحجر العالم بأسره ! .. إن هذه المبادئ الأربعة هي :

(١) الفصل بين العلم والحكمة أى الفصل بين الوسائل والغايات - يعنى أن هذه الحياة الدنيا عاية في ذاتها ، فليس وراءها حياة أخرى .

(٢) إحضاع كل حقيقة لمفهومها الخاص ومقدارها المادى مع استبعاد كل أثاره للحب والإيمان والمعاني الروحية .

(٣) الفردية أو الأنانية التي تجعل امرءاً ما أو جماعة ما المحور والمقياس لكل شيء وترى النظام الموضوع ليس إلا توازناً مؤقتاً بين الأطماع المتنافسة .

(٤) إنكار التسامى ، أو إنكار القدرة على الإفلات من هذه المتاهات المفروضة والاستكانة لتنمية حتمية تقتصر على « الكم » وتستبعد الخلق والحرية والأمل .

يقول « رجاء جارودي » : إن الثقافة الأوربية المعاصرة تنبثق من أصل

(٣٣) تركما الترجمة الحرفية لعدم وفائها بالمعنى ، وتصريفاً لما يوضح عرض الشاعبر

مزدوج ، من التراث اليونانى الرومانى ، واليهودى - المسيحى ، وقد أغفلت عن
عمد التراث العربى الإسلامى ..

والأوروبيون يرمون هذا التراث بنقيصتين :

(أ) أنه مجرد ناقل لثقافات وأديان قديمة ، وربما ضم إلى النقل بعض التفسير
والتعليق .. ولكنه ضمّ إلى ذلك إنكاره للمعتقد المسيحى ورفض قضية التثليث ..

(ب) يمثل هذا التراث فترة سلبية منعزلة ، ويمكن للمؤرخين أن يدرسوها
ليحيطوا بها علما ! إذا شاءوا

ومن خلال هذا المنظار الداكن الحائر وصف الأوروبيون الإسلام ، بأنه لا يمكن
أن يأتى بجديد ، وأنه لا يحتوى على شىء حيوى ، إنه جزء من تاريخ مصرى لا
جدوى من التأمل فيه أو ارتقاب حير منه ..

يقول المحاضر : إن هذا الاتهام المزدوج يجب أن يحارب ، وأن يكشف زيفه ،
لأنه يمنعنا من فهم الحاضر وبناء المستقبل «

وقبل أن نثبت ردود الأستاذ جارودى على هذه التهم ، نذكر طرفا من
المشاعر السيئة التى يكنها أحفاد الرومان والفرنجة عموما ضد الإسلام وأمتة ...

إن الإسلام هو الذى قلص نفوذهم وطاردهم شرق البحر الأبيض وجنوبه
وقد مر حين من الدهر كاد البحر الأبيض يكون فيه بحيرة إسلامية ! أليس جميلا
أن يكون بانى الجامع الأزهر رجلا من صقلية ؟ بعد ما فتحها فقيه مالكى مشهور !

لقد ظل الرومان بضعة قرون ملوك هذا البحر وحكام شواطئه ، ما أخرجهم
مها إلا الإسلام ، وما ردّ الحريات إلى شعوبه المأسورة إلا دين الله بعد ما حمله
العرب !

فلا عرو إذا تنامى حقد الأوربيين عموما على دين غسل الأرض من جيروتهم ،
وسوّاهم بغيرهم من عباد الله ! وقد شرعوا يتلمسون العيوب للإسلام ويفترون
الأكاذيب ليشفوا صدورهم .

قالوا : إن القرآن مأخوذ من الكتاب المقدس ! وقال أولو الأبواب كيف يؤخذ
التوحيد من التثليث ؟ والتتريا من التجسيد ؟

وقالوا : الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى ! وقال أولو الألباب : إن تشريعا يحث على إنظار المعسر والتحاور عن الدين لا يؤخذ من تشريع يقضى باسترقاق المعسر وقد يأمر بقتله ! وشتان بين المسئولية فى الإسلام والمسئولية عند الرومان ..

ذاك من ناحية الكيف أما من ناحية المساحة الاجتماعية فالقول بأن الفقه الإسلامى مستمد من الفقه الرومى كالقول بأن هر النيل ينبع من بئر حفرها حندى رومانى فى بلاد النوبة ليستقى منها هو وجواده !

إن البواعث على إهانة الإسلام وتصغير رسالته وتحقير أمته وإنكار ما تركته فى الدنيا من دوى ، وما خلفته فى العالم من رقى لاساد لها إلا كره أعمى .

قال الأستاذ رجاء حارودى : فى رده على الاتهامات السابقة التى ألحنا إليها : قبل كل شئ ننفى الزعم بأن الفكر الإسلامى . محرد مترحم ، أو ناقل عن الفكر اليونانى ، إن هذا قول لا أساس له من الصحة :

ا - فالرياضيات اليونانية تعتمد على مفهوم النهائى فى حين أن الرياضيات العربية تعتمد على مفهوم اللانهائى .

ب - كان المنطق اليونانى نظريا فى حين أن العلم العربى تحريى أساسا .

ح - كانت الهندسة المعمارية اليونانية « استاتيكية » تعتمد على الخط المستقيم أما هندسة المساجد فإنها على عكس المعبد اليونانى « سمفونية » من المنحنيات بأقواسها وقبابها .

د - كانت الفلسفة اليونانية من « برمنيدس » إلى « أرسطو » فلسفة وجود ، أما الفلسفة العربية فهى فلسفة الوجود والفعل ، ثم هى تعتمد أصلا على نبوة أى على الوحي فلها مصدر علمى آخر غير المصادر المادية للمعرفة ، التى لا يعرف اليونانيون غيرها .

هـ - المأساة اليونانية - بما فيها من شذوذ وعُقد - لا يمكن تصورها فى النظرة الإسلامية للحياة ، بل إن الأدب العربى يستنكر التصور اليونانى للحياة كما وكيفا .

(٢) ليس صحيحاً أن العلم العربى علم بدائى إذا قيس بالعلم المعاصر ، إن العلم العربى على عكس مفهومنا الوضعى لا يفصل بين العلم والحكمة أى أنه لا يُغفل أبداً المعنى والعاية !

إن القرآن ترك آثاراً عميقة فى الفكر الإنسانى تجعل المؤمن يرى آيات الله فى كل شئ ، تجعله يبصر أبعاد الألوهية فى آفاق الكون ، والسنن العامة التى تحكمه ، ومن ثم فهو يحتبس عند الظواهر الملحوظة ، بل يرى فى كل شئ «إشارة ورمزاً» يعنى إلى ربه بدهشة !!

فآيات الله فى صحائف الكون تتلاقى مع آيات الله فى صحائف الوحي تلاقياً يجعل النظرة إلى الكون أسمى ، وهذا العقل المؤمن لا يعجز عن تحليل الروابط التى تصل الأشياء بعضها ببعض ، والتى تقود إلى القوانين العلمية الشائعة فى الوجود ، وإما يمتاز العلم المتدين بأنه يضيف على هذه القوانين معنى أشراف .

ومن ثم يقول رجاء جارودى : إنها قوانين ديبوية ، بالنظر إلى العلاقات التى تسودها ! بيد أنها دينية رفيعة القدر عندما نلاحظ صلتها بالخالق ..

إن الغرب نسى الجانب الإلهى فى دراسته للكون والحياة ، فماذا كسب من مبدأ « العلم للعلم » ؟ لاشئ ! أمسى التطور الكمى للعلم والحضارة الصناعية هدفاً مقصوداً لداته ، يوشك أن يتحول إلى بلاء على أصحابه ، والخاسر فى هذا العلم المتمرد هو الإنسان فى كل مكان !

ويمضى المحاضر العظيم فيقول : « إن ههضة الغرب لم تبدأ فى إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية الرومانية ! بل بدأت فى أسانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية ! لكن هذه النهضة العربية لم تأخذ من العلوم العربية الإسلامية سوى منهجها التجريبي و « تقنياتها » وتركت جانباً الإيمان الذى يوجهها نحو الله ويسخرها لخدمة البشر ... !

وتقتطف هذا الجزء من محاضرة جارودى — وهو قليل من الكلم الطيب الذى أورده — يقول : « إننا نشهد اليوم ما كنا نشهده على عهد النبوة ، فعندما بدأ الرسول دعوته ، كانت هناك دولتان عظيمتان ، نال منهما التدهور ، تتجابهان فى

عداوة حادة ، هما الإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الساسانية ، واليوم
شهد دولتين كبيرتين تتارعان على تقسيم العالم ، وتمتل كل منهما مذهباً يخيل إليهما
أنه يعارض الآخر ! والحقيقة أنهما نتاج واحد للفلسفة المادية الفرعونية
المستكبرة ، وأمهما يؤديان إلى ذات الطريق المسدود ، ومنتهاً حتماً إلى إفلاس
البشرية

ويقول : في هذه الظروف المتميزة بأزمة الغايات أو باعدام هدف ديني
ناصح يربط الإنسانية بالله على نحو مكتمل ، يمكن للإسلام أن يقدم للعالم الشيء
الذي يفتقر إليه ، ويكاد يهلك ، لأنه لا يحده ، يمكن للإسلام أن يقدم التوحيد ،
يقدم للحياة معها البضير ، يقدم النور والجمال لعالم يوشك أن يحتويه ليل مظلم
بالغ الدمامة ...

تم ينتهي حارودي إلى القول للمسلمين : إن الوفاء للأحدا لا يتم في الحفاظ
على رفاههم ، ولكه في العمل على تبليغ الشعلة ...!!!

ودهب الرجل ليلقي علماء الخليج—وكنتم يومئذ في دولة قطر—وتتبع
أنباءه ، وهو بين حل وترحال ، وسمعت أحد الناس يقول : إن بعضهم وصفوه
بأنه صوفي متدع...! [مساكين لا يدرون شيئاً...!!]

وولّى الرجل وجهه شطر القاهرة ! وقلت في نفسي : لن يلقي هناك محمد
عبده ، لن يلقي هناك حس البنا ! من سيلقي الرجل هاك ؟ بقايا سدنة « مجمع
الأديان » الذي أوعزت به الصليبية العالمية ثم دفن في وادي الراحة بأرض سيناء ؟
وأصدر غلام شيوعي كتاباً عن ردّة « حارودي » فقلت : التقى الدهاء من
الكفار بالأغبياء من المؤمنين على مهاجمة رجل عظيم...

إن مأساة العلم الديني لا بد من شرحها ، فالقدر المطلوب لتكوين عقل مؤمن
وضمير طهور من موارثنا التقليدية لم نحسن تحديده بل لم نحاول تحديده...

والاسببحار في المعرفة الدينية هو عند الكثيرين استكتار من عملة فقدت
قيمتها ، لأنها حوار مع المولى مصت عليه قرون !!

العلم المغشوش يهز الأمة ويخدم الاستعمار

الصحة الإسلامية المعاصرة مهددة من أعداء كثيرين ، والغريب أن أخطر خصومها نوع من الفكر الديني يلبس ثوب السلفية ، وهو أبعد الناس عن السلف^(٣٤).. إنها ادعاء السلفية وليست السلفية الصحيحة !!

إن حب السلف دين وكرههم نفاق ! إنهم دعائم حضارتنا ، ومعالم رسالتنا ، من أحل ذلك يجب أن يحسن التأسي بهم ، وأن ندفع عنهم كل ما يؤذى سمعتهم !

كنت يوماً أتحدث في موضوع غير ذي بال ، وفي المجلس رجل موصوف بالسلفية ، وجرت على لساني كلمة موهمة لم أقصد إلى شيء بها ! وتلفت فإذا الرجل يحسب في نفسه مسار فكري ، ويقدر أنني سأتورط في كذا وكذا ، وكشّر عن أنيابه واستعد للفتك !! غير أن الحديث انعرج إلى ناحية أخرى ، وشعرت بأن الرجل آسف لأنني أفلت منه..

قلت له : فلان ! قال : ما تريد ؟ قلت : رأيك متحفزاً للنزال ، ثم كفى الله المؤمنين القتال ... قال : نعم ، حسبك ستقول مالا أوافق عليه ...

قلت : إنكم تتربصون بالخطأ ، لتأكلوا صاحبه ، فإذا فاتكم شعرتم بالحزن ، ليست هذه يا صاحبي خلائق المؤمنين ! إنكم تجمعون جملة من صفات العناد والتحدي والحقد وتلمس العيب للبرآء ، وهذا كله مرفوض في ديننا ...

قال : نحن ننافح عن السنن ونحارب المحدثات والناس تأبى إلا الابتداع ، وما يرموننا به باطل ...

قلت : ليت الأمر يكون كذلك ، إنكم تهاجمون المذاهب الفقهية ، وتخدشون أقدار الأئمة ، وتتركون انقسامات عميقة بين الناس باسم السلفية ، والعلم

(٣٤) السلفية تعنى العودة إلى عقيدة السلف وأحلاقهم السمحة الكريمة ، وليست الدعوة بواسطة النصيـد والحقـد !!

الصحيح لا يأخذ هذا المنهج ..

قال : نحن نرفض التقليد المذهبي ، ونعلم الناس الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أتأبى أنت ذلك ؟

قلت : لا يأبى مسلم الارتباط بكتاب ربه وسنة نبيه وتصوركم أن الفقه المذهبي يستقى من نبع آخر غير الكتاب والسنة غير صحيح .. ومن الممكر للعلماء الراسخين أن يافتوا بعض الفصاها ، ويعرفوا ما جاء فيها من آثار ، ويستسلطوا ما يطمئنون إليه من أحكام ، وذلك كله في إطار من الإخاء والحب وإيثار الحق على الخلق ..

والفقهاء الأربعة الكبار ، نماذج رفيعة لاحترام الكتاب والسنة ، ولا يلام مسلم تبع واحدا منهم ، كما لا تلامون أنتم في اتباع الشوكاني أو الألباني أو الصنعاني الخ

قال : ذاك ما نقول ! قلت له : لا ، إنكم ترون رأيكم - الذي تابعتم فيه أحد الناس - هو الحق وحده ، ثم تشنون هجوما على من خالفه بوصفه خارحا على السنة !! كأن السنة وقف عليكم أنتم لا غير !

أحب أن تعلموا أن الاجتهاد الفقهي خطأه وصوابه مأحور ، وأن الأمر لا يتحمل عداوة وفرقة ! ولو سلمنا أن ما لديكم هو الصواب ، فمخالفكم ما حُرِّم ثواب الله ! فلماذا تريدون إحراجه ، وإخراجه من دائرة السلف ، لتبقى حكرأ عليكم ؟

الرأى عندى أن المأساة (خُلُقِيَّة) ، لاعلمية ، وأولى بكم أن تتواضعوا لله ، وتصلحوا نيتكم معه ، وتتطامنوا لإخوانكم المؤمنين ، وتحسوا الظن بهم ..

إذا اقتنعت برأى فمن حق غيركم أن يقتنع بضدّه ، ولا مكان لحرب ولا ضرب ، والخلاف الفقهي لا حرج منه ، أما الإثم ففي التعصب المذهبي الضيق ! والعالم الإسلامي رحب ، والمذهب الذي يضيّق به قطر يتسع له آخر ، والذي ينبو عنه عصر تتسع له عصور أخرى ..

إن رعيم السلفية الأسبق في مصر الشيخ حامد الفقى حلف بالله أن أبا حنيفة

كافر ، ولا يزال رجال ممن سمعوا اليمين الفاجرة أحياء ، وقد نذدت أنا في كتاب لي بمحاضرة أُلقيت في حي الزيتون بالقاهرة تحت عنوان «أبو حامد الغزالي الكافر» والمكان الذي قيلت هو مقر السلفية !! والطلبة السلفيون في جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر- يقولون عن مالك بن أنس : إنه يفضل عمل أهل المدينة على حديث رسول الله ، قلت لهم : هذا كذب ، إن مالكا رضى الله عنه يرى عمل أهل المدينة أدل على سنة رسول الله من حديث واحد قد يحفظ أوينسى ، قد يخطئ أو يصيب !!

هذا التفكير المريض المتحامل لنتيجة له ؛ إلا تمزق الأمة المشخنة بالجراح ، والزعم بأنه سلفى لون من الدجل والجراءة ..

وقد لاحظت ثلاث ثمار لهذا العلم المغشوش ، الأولى أن بعض الطلاب الدين لا يحسنون إعراب جملة يقولون عن الأئمة المتبوعين : هم رجال ونحن رجال ! قلت : إن الشعب الإنكليزي لا يتناول رئيسه «تاتشر» بهذا الأسلوب السمج ! ليت شعري أين هذا السلوك من قول رسولنا ﷺ «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه» !!

الثانية أن نفراً من العمال والفلاحين فرطوا في أعمالهم الحرفية ، وأو الفنية ، مكتفين في إثبات تدينهم بثوب قصير ، ولحية مشوشة ، وحمل عصا حيناً ، أو ارتداء عمامة ذات ذنب عندما تكون «الشيخة» قد ثبتت لصاحبها ...!

أما الملاحظة الثالثة ، وخطرها شديد فإن عملاء روسيا وأمريكا أبقاوا في محاربة الإسلام ، مهرة في إطفاء صحوته الجديدة ! وهم يجتهدون في إبرار الجماعات المتطرفة والتغاضي عن نشاطها لأنها وجه دميم للإسلام ودعاية حقيقية ضده ، وهدم للوحدة ، وتسجيل للفرقة !

من أجل ذلك يحاربون الفكر المعتدل ، أو الإسلام الصحيح ، ويطاردون أتباعه ، على حين يترك هؤلاء الغلاة يثيرون الشبه ، ويشعلون حروباً داخلية تقضى على الإسلام ومستقبله .. وذاك سر انتشارهم في آسيا وإفريقية !

إنهم لو نجحوا-قضوا على الإسلام في مهده بقصورهم العقلى ، فليتركوا لتحقيق ذلك !!

وتتجاوز حكاية فقه الفروع إلى حكاية أخرى أدهى ! كنت أقرر أن أحاديث الآحاد يعمل بها في الأحكام الشرعية القائمة على العلم الظني أو الظن الراجع .. فسأل طالب : هل يبنى على الظن عمل ؟ قلت : تدبر قوله تعالى ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ (٣٥)

إن أحوال الناس ومسالكتهم تنبنى غالباً على ما يترجح لديهم من أحكام ، وأحاديث الآحاد ثبت في الدماء والأموال والأعراض على هذا الأساس ...
أما أصول الاعتقاد ، وأركان الإسلام فتستمد من نص قطعي الدلالة ، قطعي الثبوت ، وهذا ما عليه جمهور الأئمة .. قال الطالب : وهو سلفي كما ظهر لي - حديث الآحاد مصدر للاعتقاد !

قلت - محاولاً الاختصار - ليس في ديننا عقائد تقوم على حديث آحاد ! عقائدنا كلها ثابتة بأدلة قاطعة ، ولاداعي للجدال ! قال الطالب : عقيدة القدم ثبتت بحديث آحاد ! فرددت كلمة الطالب بضيق شديد ، وغازني منه أن يستأنف كلامه قائلاً : وفي رواية أخرى ذكرت كلمة رجل بدل كلمة قدم

قلت : تعنون أن ثبت أن لله رجلاً ؟ ونعد ذلك من عقائد الإسلام التي نلزم الناس بها ؟ قال : نعم ، وذاك رأى سلف الأمة .. !

قلت : ما أجراكم على الافتراء ! إن سلف الأمة ما تدرى شيئاً عن هذه الرجل ، ولا سُمع دأج إلى الإسلام يكلّف الناس أن يؤمنوا بها ..

وأصل القصة وتفصيلها ذكره القرطبي على نحو واضح سليم .. فقد ورد في صحيح مسلم والبخاري والترمذي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فينزوي^(٣٦) بعضها إلى بعض وتقول قَطُّ قَطُّ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة » لفظ مسلم . وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة : « وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجلاً يقول لها

(٣٥) سورة النقرة ٢٣٠

(٣٦) يروى بعضها إلى بعض : تنقص على من فيها ، وتشغل بعداهم ، وتكف عن سؤال هل من مزيد

قَطُّ قَطُّ فهناك تمتلئ وتنزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أجدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً. قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القدم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرجل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ؛ يقال : رأيت رجلاً من الناس ورجلاً من جرّاد

قال الشاعر :

فمرّ بنا رجلٌ من الناس وانزوى إليهم من الحىّ البمانينَ أرْجُلُ
قبائلٍ من لَحْمٍ وعُكُلٍ وجميرٍ على أبْنَى نِزارٍ بالعَدَاوةِ أحفُلُ

ويبين هذا المعنى ما روى عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مقمّع ولا تابوت إلا وعليه أسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطُّ قَطُّ حسُنّا ! أى أكتفينا أكتفينا ، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر . فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم ؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة» وقد راد (القرطبي) هذا المعنى بيانا في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسى والحمد لله . وقال النضر بن شميل - كما ورد في القرطبي أيضاً - في معنى قوله عليه السلام : «حتى يضغ الجبار فيها قدّمه» أى من سبق في علمه أنه من أهل النار .

فأين القدم التى يمشى عليها في هذا السياق المبين ؟ إن العقائد لا تحتزع ولا تُفتعل على هذا النحو المضحك ! عقيدة رجلٍ لله (11) ما هذا ؟

قلت : إن أركان الإيمان تؤخذ من نص قطعى الثبوت أى متواتر ، قطعى الدلالة أى لا يحتمل معنى آخر ..

وإذا كان الأحناف يرون أن خير الواحد لا يثبت فريضة في الفروع العملية ؛ لأن الفرض عندهم يثبت بدليل قطعى لاشبهة فيه ، فكيف تتصور نحن إثباته لعقيدة يكفر منكرها ؟

ولكن الطالب السلفى قال : إن القرطبي أشعريّ المذهب وإنه أحد المفسرين الجانحين إلى التأويل ، وإنه يشبه الرازى والغزالي ، وإنهم جميعا مبتدعة لا يؤخذ الإسلام منهم ...

وعلمت أن الغلام مملوء بالجهالة ، وأنه-مثل غيره من أدعياء السلفية-لا تصلح الأرض معهم ولا بهم ...

الطريق لحل الخلاف في قضية التأويل :

وهنا أجدني مسوقا إلى الكلام عن التأويل ، وتبيان الموقف الصحيح منه ... إن العقل الإنساني في عصرنا هذا عرف قدره ، وعرف أين يمتدّ وأين ينكمش ؟ ففى بحوث المادة انطلق لايلوى على شيء ! أما فى ما وراء المادة ، فقد تراجع وأعلى أن هذا ليس ميدانه ...

والعقل الإسلامى عرف هذه الحقيقة لكن بعد ما داخ وكاد يهلك ! والذين اشتغلوا بالتأويل عندنا سبّحوا طويلا فى البحر ثم لما أحسّوا الفرق عرجوا على أقرب شاطئء فنجوا بأنفسهم ،!

وقد تأملت مليا فى مواقف رجالنا قديما ، فما شعرت فى قلب أحدهم بسوء ، ولا رأيت أن أحدهم يخطر بباله النيل من أجماد الألوهية ، أو الخطّ من عظمتها ! إن جمهرتهم- فى خشوع وأدب-تشارك مع الكون المسيح بحمد ربه ، وتشارك مع الرّكع السجود فى التوبة والخضوع.

ربما أسفّ المعتزلة فى بعض عباراتهم ، وربما خدعهم الإعجاب بفكر اليونان حيناً ، وأيّاً ما كان أمرهم فإن العقلاء أدانهم فى تأليهم السلطة على أحمد بن حنبل ، وكان ذلك طاويا لرايتهم إلى الأبد ، فانتهاوا بخيرهم وشرهم ...

أما الأشاعرة فتنزيهم لله واضح ، وثناؤهم عليه جميل ، وقد اقتصدوا فى التأويل ، وسلّكوا مسلكا وسطا جعل جماهير المسلمين تنضمّ إليهم من ألف سنة إلى اليوم

ولك أن تقول : ما قيمة هذا الاقتصاد ، ونحن مهيون عن التأويل جملة وتفصيلا ؟

ومحيب : إن المتكلمين من سلف وخلف اضطروا إلى التأويل في بعض جمل من الكتاب الكريم-والسنة كذلك-توفيقا بينها وبين الآيات الأخرى ، وتمشيا مع حكم العقل في إثبات الكمال كله لله تبارك اسمه ، ونفى أى إيهام بما لا يليق !

تدر قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣٧) لقد قال المفسرون : المعية ههنا معية صفات ، لامعية ذات ، فهو معنا بعلمه وسمعه وبصره وقدرته وحكمته ورحمته .. الخ أما معية الذات فتقتضى الحلول وهو باطل ...

وعلى صوء هذا فسروا قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٣٨) وقوله أيضا ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣٩) ... قالو : نحن أى ملائكتنا !...

فإذا استحق الأشعري لوما ، لأنه أول آيات ومرويات ابتغاء تزيه الله تبارك وتعالى فغيره لذلك ملوم ولا معنى لنهش الرجل وحده بالأسلوب المسعور الذى يراه الآن !!

هل يعنى ذلك أننا مع الأشعري في منهجه ؟ الحق أنى مع السلف الأول من صحابة رسول الله ، ومع دولة الخلافة الراشدة ، التى لم تفتح بابا لهذه البحوث ! وأنظر إلى ابن تيمية والأشعري على أهما سواء في الإيمان الصحيح ، والغيرة على الإسلام

وما يأخذه الكاشحون على أبى الحسن ، يؤخذ مثله على اس تبعية عندما يتوقف في نفى الجسمية عن الله فلا يثبت ولا ينفى ، وهذا خطأ ، وكان ينبغي أن يلتزم بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٤٠) فيجزم بالنفى ! كما يؤخذ عليه أيضا نفيه للمجاز في القرآن وفي اللغة العربية كلها ، إن علماء اللغة وأدباءها وشعراءها يتسمون من هذا النفى الغريب

ولكن هذه الهنات لاتنال من قدر إمام شافع كبير العقل راسح اليقين شديد البلاء ، في نصرة الإسلام ، ورد أعدائه ..

وواجبنا في هذا العصر ألا نجدد العراك بين الموتى ، وألا نحترق الخلافات

(٣٧) سورة الحديد ٤

(٣٩) سورة الواقعة ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٣٨) سورة ق ١٦ .

(٤٠) سورة الشورى ١١ .

القديمة^(٤١) ، لنقطع بها أرحام المؤمنين في هذه الأيام النحسات التي أحرق فيها أعداء الإسلام حول داره ، يريدون هدمها ...

إذا كان المثل يقول «لاتجعل سحب الغد تغطي شمس اليوم» فأولى بنا أن نقول : «لاتجعل غيوم الماضي تغطي شمس الحاضر» !!

ماذا يكسبه السلفيون من شتم الأشعرى والرازي والغزالي والقرطبي وبقية علماء المسلمين ؟؟ طول عشرة قرون !! أليس الأولى بهم أن يدركوا شؤم الخلاف ويجنبوا الأمة بلاءه الآن ..؟

كنا في الجامع الأزهر ونحن طلاب صفار نعرض رأيي السلف والخلف ، وندرس مواقف الجانبيين ، دون حساسيات ، وقد ألفت كتابي «عقيدة المسلم» مؤثراً مذهب السلف لاقتناعي بعجز العقل البشري عن اكتناه الغيبات ...

بيد أني ما فكرت في تأليف فرقة لشم الأشعرى وسائر الخلف ، وشغل المسلمين بمحاربة الموق ، وإلقاء محاضرة في تكفير الغزالي باسم السلف !!

إن أبا حامد غفر الله له مؤلّه القلب بحبّ الله ، حارّ الكلمات في مدحه وحمده ، واقتياد الناس إليه ، وتحبيب ذكره إلى نفوسهم !

وما يحكم بكفره مسلم ! فكيف يفعل ذلك منتسب إلى السلف ؟

وأعود إلى قضية التأويل لأسجل بعض مشاعر نفسية وعقلية مرت بخاطري

لقد كتبت قبل ذلك أن اللغات من وضع البشر يعبرون بها عما ألفوا من أشخاص وأشياء وأفكار في عالمهم المأنوس لهم ، وأن هذه اللغات أعجز عن تصوير أمجاد الألوهية ، وآفاق الكمال الأعلى ، وأن الوحي الإلهي عندما يخاطب الناس فهو يُقَرِّب إليهم بالفاظهم ما يناسب أفهامهم ...

كنت ذات يوم جالسا مستغرقا في تفكير عميق ، فلمحت ذبابة تطير قريبا مني ! فتساءلت : أتعرف هذه الذبابة ما يدور برأسي ؟ بداهة لا ! إنها دون ذلك كثيرا كثيرا كثيرا ! قلت : إن عباقرة الجنس البشري ، لو تسلسل تفكيرهم يُمدّ بعصه بعضا ليعرفوا طرفاً من حقيقة الذات العليا ؛ لكانوا أعجز من هذه

(٤١) هذا هو الهدف من الرأي الذي أبدته ، مع أني — كما ذكرت — على عقيدة السلف الصالح والحمد لله

الذبابة ... إن شأن الألوهية أجل وأسنى !!

وتساءلت : كم أشغل أنا من مساحة أو من حيزٍ على ظهر الأرض ؟ أشبار معدودات في عدة أشبار ! وتضاءلت في نفسي شيئاً ما ، ثم ارداد تضاؤلى وأنا أقول : إن الأرض كلها تأخذ من مساحة الكون الكبير أقل من الحيز الذى آخذه أنا منها ! إنها داخل الملكوت الفخم تشبه الهباءة التى ترتعش في شعاع من الشمس

لو فנית هذه الأرض بمن فيها وما فيها ، ما نقص الكون شيئاً طائلاً ، ولو فنى الكون كله ما ضار المجد الإلهى شيئاً !

وتسلل إلى قلبى إحساس بالرهبة ، وأنا أتدبر قول ذى الجبروت والعظمة-مهردأ من أشركوا به- ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعاً^(٤٢)﴾ ؟ لأحد ! إن الملائكة والمرسلين ومن دونهم فقراء إلى الله ، وهو غنى عن العالمين ..

وتذكرت أنى أتنفس بلا تفكير ! نعم كم شهيقاً وكم زفيراً في كل دقيقة ؟ عشرات المرات ! والعمر مربوط بهذه الأنفاس ، فلو توقفت فاضت الروح ! خمسة مليارات من البشر يتنفسون ، وأضعاف أضعاف هؤلاء من الطيور ، والزواحف ، والدواب الهائمة والسائمة والعائمة.

من يهبى لأولئك كلهم الهواء الصالح لهم ؟ قال العلم : يحتاج الأحياء إلى الأوكسجين ، ويحتاج النبات إلى الكربون ، ويتم تبادل بين النوعين ليأخذ كلاهما مايقويه !

ترى كيف يتم هذا التبادل ؟ وأين ؟ وكيف يتبع العلم الإلهى مسار كل زفير وشهيق في هذا الجو الرحب ، ليلبغ مداه ، ويتم دورته ، ويحقق نتيجته ؟؟؟

إننا معشر الإنس والجن-لنعرف إلا القليل عن عالمنا ، فكيف يدرك عالم الغيب من يجهل عالم الشهادة ؟ وكيف يحاول الغرور البشرى اكتشاف الذات ، أو الصفات العليا ؟

(٤٢) سورة المائدة ١٧

أَحْسَبَ أن البطالة النمسية ، والتطاول الرديء من وراء الترف العقلى فى عالم الكلام

جماعة يوغلون فى التنزيه إلى حد التحريد ، وآخرون يبلغون فى الإثبات إلى حد التجسيد ، والقرآن الكريم بعيد عن المسلكين ، ونحن لانقبل إلا منهاجه ، ولا نأخذ عقائدنا إلا من توجيهه الحق ، ننتقل أو نتوقف وفق ما يريد .

واللطيف أن العلم بعد ارتقائه المعاصر ، يهذى إلى الله بالأسلوب القرآنى ، لبالفكر السطحي ، ولا بالتعمق الناثه ، وقد تدبرت كتابات علماء الكون والحياة فوجدتهم استدلوا بالملكوت على صاحبه ، وعت وجوههم أمام عظمته ، ثم استيقنوا بعد ذلك من عجزهم عن اكناه داته ، فتوقفوا مبهورين ، ولو وُضعت تحاه أعينهم آيات القرآن الكريم لقالوا : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾^(٢٣) هذا ما يريد أن نقول ، ولكسا لانعرف

وتعايرهم تدل على وحدة الشئ . لا وحدة الوجود ! فهم عالمون بأن المخلوق غير الخالق ، وأن العالم غير مبدعه . سير أهم يهتفون باسم الله عندما ترق أمام أعينهم آياته ، وتنكشف الأسرار عن حكمته وقدرته ! وهذا الهتاف عودة إلى الخالق ، الذى نطق صناعته بجلالته

قلت لنفسي يوما . ما أثقل هذه الأرض ! ما أثقل جبالها ومخارها المحيطة وغير المحيطة ، وصحاريها وبراريها ... مَنْ يحملها فى هذا الفضاء ، ويديرها أمام أمها الشمس ؟ بل من يحمل الشمس نفسها - وهى عضو فى مجرة هائلة - بين ألفى ألف مجرة تسبح فى حو السماء ؟ وهمست شفتاى بالحواب : من ؟ إلا الله ! ثم قلت . ذاك الخاطر بعض ما حاء فى السة الشريعة : « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه وزنة عرشه ، ومداد كلماته » !!

ورجال العلم الحديث بعداء عن الجدل الفلسفى ، والشقشقة اللفظية ، فإذا نظر أحدهم إلى سبلة قمح ، أو كوز درة ، فقال : الله ! فلا يعنى إلا الإشارة بقدرة استخرحت من الطين هذا الحب المتراص الصيد ، وأبررته سطورا سطورا كأنه قصيدة رائقة ..

إبه المعنى السهل الذى لخصه الشاعر العربى بقوله :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد !...

وقد رأيت الإحساس بالله سيطر على بعض الكاتبين والعالمين والمتصوفين ، فجاءت عباداتهم تدل على الله ، أكثر مما تدل على العالم ، وسر هذا الاستغراق الحسي أن الله هو وحده مصدر الإيجاد والإمداد ، وأن وجود الأحياء عارضة ممنوحة لهم من الحى القيوم ، وإلا فليس لهم من ذواتهم إلا العدم ، وإذا كان في الأرض والسماء ما يعجب أو يروع ، فالفضل لذى الجلال والإكرام لاغير ، أجل ، فما يكون هذا الغير ؟ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤٤)

ذاك سر الصرخات المنكرة ، التى أرسلها ابن عطاء الله السكندريّ في وجه أناس لا يرون الله ! منهم ملاحدة ينكرون ويطلبون الدليل على وجوده ! ومنهم أهل دين لا يحسون أنه منهم قريب مع أن منه دقائق قلوبهم ولحات عيونهم يقول اس عطاء الله .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى أظهر كل شيء ...

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى ظهر بكل شيء^(٤٥)

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى ظهر في كل شيء^(٤٦)

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الظاهر قبل وجود كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو أظهر من كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الواحد الذى ليس معه شيء^(٤٧)

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو أقرب إليك من كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ ولولاه ما كان وجود شيء

شتان بين من يستدل به ، وبين من يستدل عليه ! المستدل به عرف الحق

(٤٤) سورة الحديد ٣ - (٤٥)، (٤٦) آياته ودلائل حلاله وحماله هى التى ترى وتدل عليه

(٤٧) الوجود واحد وإن كانت الموجدات كثيرة ، فالأشياء لاتقوم إلا برها ولوجودها إلا منه ذلك ، ونلفت النظر إلى ما قرناه آنفا عن وحدة الشهود .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشد أولى الألباب إلى من له الخلق والأمر ، وتزجرهم عن الاحتباس في المادة الهامدة ويسيان أروها من العدم إلى حيز « كل شيء هالك إلا وجهه » .

لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ! والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ،
وإلا فمتى غاب حتى يُستدل عليه ؟ ، ومتى بُعد حتى تكون الآثار هي التي
توصل إليه ؟

في فجر النهضة العلمية الحديثة في بلادنا ألف الشيخ محمد عبده «رسالة
التوحيد» اجتهد الرجل فيها أن يعرض علم العقيدة في ثوب جديد ، فابتعد عن
الجدل ، وأى أن يلزم واحدا من المتكلمين ، وعدّهم جميعا إخوة يبحثون عن
الحق ، ثم شرح القضايا الأصيلة في ديننا شرحاً حسناً ، وقدم لها خلاصات
نقية ..

وتألفت بعد «رسالة التوحيد» كتب في العقيدة نثت ولم تهدم وجمعت ولم
تفرق ، وتحاشت الماضي الذي قسمنا في المجال الثقافي والسياسي فرقا يشقى بها
المؤمنون ويسعد بها الكافرون ، وأسهمت أنا في هذا الميدان بكتايب عقيدة المسلم
الذي ألفت من ٣٥ سنة تقريباً ، وأرجوا أن ينفع الله به

لكن هواة الشقاق يأبون إلا استحياء الخلاف ، وما أغنانا عنه !
إن ثقافتنا الإسلامية كلها عندما تعرض الآن ينبغي أن تغربل بدقة ، حتى
يتساقط التافه في صمت ، ويبقى ما ينفع الناس ... ونحمد الله أن بقي كتابه
محفوظاً ، وأن بقيت السنة محروسة بالعلماء الثقات والفقهاء الأمناء.

وننصح إخواننا العاملين تحت راية «السلفية» أن يقدّروا شرف هذه الراية ،
وإذا قبلوا الأمور لأمة تريد النهوض ، وأن يتركوا قصة التكفير والتفسيق لعباد
الله ، فإنهم يهدمون أنفسهم قبل أن يهدموا غيرهم ...

حد أدنى لثقافة المسلم...

لو كان الإسلام فلسفه أخلاقية لأمكن أن يهص به بعض الوعاظ والمريين !
ولو كان نظاماً سياسياً فقط ، لأمكن أن يقوم به حزب من الأحزاب الراغبة
في الحكم !

إنه مجموع الأمرين ! والتعريف به والبقاء عليه لا يتم إلا بصياغة علمية شاملة !
بيد أن علم الكلام ، وعلوم العقيدة إجمالاً لم تحس هذه الصياغة ، أو لم تقدم
لها خلاصة نقية ! فهناك بحث هل العمل شرط أو شطر في الإيمان ؟ أو لا شرط
ولا شطر ؟ وهناك قول عجيب في أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان ! وإلى
لأستغرب كيف يذكر قول بأن الإسلام-وهو دين الله-يمكن ألا يكون معه
إيمان ؟

وهناك تضايح حُشِيَتْ بها الأذهان ، وهي فضول أو ذبول يجب قطعها ... مثل
الاستثناء في الإيمان ! الحرام رزق ! المقتول ميت بأجله ! إنها قضايا تافهة ، وكان
أولى بالعرض الجيد علاقة المسلم بالله كما وصفها القرآن الكريم ، فإن هذه العلاقة
تتكوّ من جملة أخلاق يكون الإيمان صغراً بدوها ، ولا أدري من يهتم بها إذا لم
يهتم بها علماء العقيدة ؟ إنها تُركت للأسف للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل
الطريق ، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرفقات القلوب ، ومكانها الأول
كما قلنا في علم التوحيد إذ لا دين مع فقدانها ...

١- خشية الله

فخشية الله من عناصر الإيمان الأولى ، وتذكر ذلك من آيات شتى وثقت
الصلة بين الخوف والإيمان. قال تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا
هِيَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُونَ ^(٤٨) ﴾ فالشعور بالرهبة يغمر الفؤاد من الله وحده !

وقد يتعرض المؤمن في حياته لمخاوف شتى . لكن خوف الناس يتلاشى أمام إجلال الله وإعظام أمره ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤٩) ولما طلب من اليهود أن يدينوا دين الحق كان من أول ما كلفوا به ﴿...وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾^(٥٠)

وعندما وعد الله المؤمنين بالنصر على الأعداء ، ربط وعده بهذه الرهبة الضابطة بسلوكهم فقال ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنَسْكَنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾^(٥١)

وبين أنه على قدر معرفة الله تكون خشيته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(٥٢)

ومع وعد المؤمنين الصالحين بحسن العقبى ، أكد أن ذلك لا يتم إلا مع خشية الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِّ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَذْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾

أين تكون التقوى إذا انتفى الخوف ؟ وأين ينبت الضمير الصاحي ؟

٢ — رجاء الله

ونذكر بعد الخوف الرجاء ، فإن جمهرة الناس تسيرهم مشاعر الرعدة والرهبة ، والوعد والوعيد ! وقد كان لسيف المعز وذهبه أثرهما في استقرار دولته ..

والرجاء في الله له معنى أشرف وأذكى ، فإن المرء في هذه الدنيا لا يفلت من غيمة إلا لتحتويه أخرى ، ولولا شعاع الرجاء في قلبه لغاب في الظلام ، وهذا الرجاء يومض من الإيمان بالغيب ، والثقة فيما عند الله ، ومن ثم فإن الماديين لا يعرفونه ، لأنهم محجوبون بالأسباب الظاهرة ، يستمدون أحكامهم من عالم المحسوسات وحسب

وقد كان يعقوب مكذبا لمن حوله ضائقا بهم عندما قالوا له ﴿تَاللَّهِ ثَفَنَّا نَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ قال : ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي

١٤ (٥١) سورة إبراهيم

(٥٠) سورة النقرة ٤٠

(٤٩) سورة آل عمران ١٧٥

وَحُزِنِي إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . يَسَى اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ^(٥٤)

وتحقق رجاء يعقوب بعد لأى ، وتلك سمة الله فى عباده ، ولا بد من الاستكانة لها فهو القائل : ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا^(٥٥)﴾ والرجاء فى الله يحتاج إلى مهاد من الصالحات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ^(٥٦)﴾ ويحتاج الأفراد والجماعات إلى الرجاء والدعاء فى جهادهم لأنفسهم وجهادهم للناس . فلا شيء أقتل للنفس من فقدان الأمل ، وغلبة القنوط ، وانكسار الإرادة وفى القرآن والسنة آيات وحكم تجدد الرجاء وتغرى بالدعاء ، وتهمز الآلام والفتن مهما طال حصارها واستحكمت حلقاتها ..

وقد تأملت فى قعود القاعدين ، واستسلام المقهورين فلم أر له علة إلا عدم الرجاء فى الله ! وما ضاع الرجاء إلا مع ضياع اليقين...

٣ ، ٤ — الصبر والشكر

الصبر والشكر ، وهما أركان الإيمان ، بعد أن يتحوّل من صورة ذهنية إلى واقع عملى ! إننا نحب أن نعيش «متفرجين» ننظر إلى ما يعرض لغيرنا فى هذه الدنيا ، كما ينظر الأطفال إلى برامج «التلفاز» حسّتهم منها النظر والتسلّى

ودين الله ودنيا الناس ليسا كذلك ، إنما اشتباك حقيقى مع السراء والضراء ، والخير والشر ، اشتباك يجر المرء بعيداً بعيداً عن الشاطئء ليصارع الموج ويواجه الموت ، ثم يعود وهو يلهث ما يصدّق أنه عاد ...

إن الله أمر موسى أن يذكر بنى إسرائيل بتاريخهم مع أعدائهم ، وما عانوا من بلاء ، وما تم لهم من إنقاذ ﴿وَذَكَرْهُمْ يَا مُوسَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ^(٥٧)﴾

(٥٦) سورة فاطر ٢٩ .

(٥٥) سورة الطلاق ٣

(٥٤) سورة يوسف ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧

(٥٧) سورة إبراهيم ٥

وقصّر علينا سبحانه خير «سبأ» وتكرّمهم لنعمة الله ، ثم ذكر ما أنزل بهم من جزاء فقال : ﴿...فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٥٨)

ولست أتحدث عن فضيلتي الصبر والشكر المعتادتين بين الناس ؛ إنما أعني صراً يحس صاحبه أن الله ما أخذ والله ما أعطى ، وأن حق العبودية التحمل دون تملل وصجر ، فإذا حُرِم المرء ما يَحْت ، أو كُلف ما يكره ، نظر إلى ربه في تسليم ، واستقبل قضاءه دون سَحَط ..

وكذلك إذا طرقت النعماء بابه ، لم يطش لهالته ، أو يملكه الغرور فيحسب أنها حاءت إلى صاحبها الجدير بها .. كلا إن اختبار الناس بالسراء أصعب من اختبارهم بالضراء ، والساقطون في امتحانات الرخاء أصعاف الساقطين في الميدان الآخر

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ صَرَاءَ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٥٩) ويلاحظ أن كلمة صبروا في الآية الأخيرة وضعت مكان كلمة آمنوا ، فقد اطرّد في النظم الإلهي أن يقترب الإيمان بالعمل الصالح دائماً ، وإنما تغير اللفظ فقط ، وإلا فكلمة الصبر التي حاءت هنا هي أثر الإيمان وامتداده ...

كما يلاحظ أن إبليس لما أعلن تمرّده على ربه أعلن أنه سيعترف الناس عن شكره فهم يأكلون خيره ويعبدون غيره ! وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ الْآخِرَةَ مِنَّمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾^(٦٠) ؟

٥- توفير الأسباب

المرء يتعلق بما يملك من أسباب ، ويرى -بعد وفرتها لديه- أن كل شيء يدعو إلى الطمأنينة ، وإلى ذلك يشير الشاعر مستهزئاً بتهديد خصمه له :

(٦٠) سورة سبأ ٢٠ ، ٢١

(٥٨) سورة سبأ ١٩ .

(٥٩) سورة هود ١١ .

أبوعدى والمشرقي مضاحي ؟ ومسوية ررق كأياب أحوال ؟
وتوفير الأسباب مطلوب ، بل العقلة عنها جريمة ! وقد قال الله سبحانه .
﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلَاحِكُمْ وَأُمْتَعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً
وَاحِدَةً﴾^(٦١) !

والعريب أن المسلمين طالما عقلوا ، وطالما دهوا بددا إثر ميلة واحدة من
أعدائهم المترصين !

ومع سدّها بقانون السسية ، وقيمه العوامل المادية يريد إيصال حقيقة مقررة
في الأرض والسماء هي أن الأمور لاتلغ تماماً إلا بإدبه تعالى ، فما يقطع
مقطوع ، ولا يتصل موصول ولا يبت ببات ولا ينحيا حتى إلا وفق المشيئة العليا
والإنسان قد يملك أسبابا ولكنه لا يملك الأسباب كلها ، ولو ملكها كلها فهو
لا يملك الأسباب المصادرة لها ، بل إن تيار الحياة الذي يمد القلب بالضر ، والعقل
بالفكر ، والأعصاب بالحس ، ليس ملك الإنسان نفسه ، بل ملك واهب الحياة
الذي له الخلق والأمر ، ويده المفع والصر ، والهرمة والصر ، والتقديم
والتأخير ..

من أجل ذلك يحب التوكل على الله والركون إليه والاعتقاد أن النتائج المرتقة
لكل سعي مرهونة بمشيئته وحده وتدبر قول الله لسيه : ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ
وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصِرْ عَلَى
مَا يَقُولُونَ...﴾^(٦٢)

ويتأكد هذا التوكل في الفترات المرة التي يضعف فيها الحق ، وتقل الأسباب
المادية معه ، وتفحش مع المبطلين . قال تعالى على لسان رسله المستضعفين :
﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ سُلْطَانًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا
أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٦٣)

والتوكل ركن الإيمان في حالي القوة والضعف ، فلا القوة -مع التوكل - تعر
ولا الضعف يقهر بل يبقى المسلم مترد الأعصاب معتدل الأحكام عارفا حدود

(٦٣) سورة إبراهيم ١١ ، ١٢ .

(٦١) سورة النساء ١٠٢

(٦٢) سورة المزمل ٨ ، ٩ ، ١٠ .

قوته مع من لاتحدّ له قدرة ، ولا يُغلبُ على أمره أبدا ...

٦- حب الله

إن جمهور المسلمين يحسب هذا الحب صفة كمال ، أو درجة عليا لبعض العابدين ! وهذا غلط شنيع ، فإن فقدان هذا الحب فسوق ، ويغلب أن ينتهى إلى الكفر البواح ...

إن الله يصف المشركين فيقول : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾^(٦٤) وهذا وصف دقيق ! فقد رأينا من الكافرين بالله من يفتدى كفره بدمه وماله ، ومن يشمئز إذا ذكرت كلمة التوحيد ، ومن يقطب جبينه إذا رأى مؤمنا ويودّ لو حسفت الأرض ! وتأمل في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَحْنُونٌ...﴾^(٦٥)

ما الذى يوقف هذه المشاعر الحادة ؟ الذى يردّ هذا الحب المكين للباطل ؟ يقول الله تعالى ﴿...وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٦٦)

إن العواطف الفاترة والأنفاس الباردة لاتحمى حقاً ولا تصون شرفاً لاسيما إذا حشا الباطل جنوده بالأوهام ، ودفعهم بياس شديد إلى اقتحام كل زحام ...

لقد وصف الله الرجال الذين يصلحون لدينه بأنهم قوم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾^(٦٧) !

والواقع أن علم العقيدة عندنا لما اتّسم بالجدل ، وأضفت عليه فلسفة يونان الأخذ والردّ ، والبحث والنظر ، تحول إلى علم جاف عقيم ، وأمسى قدرة عقل على الاستدلال ، لاقدرة قلب على تذوق حلاوة الإيمان ويجب أن نعود إلى قواعدنا الأولى ..

(٦٦) سورة البقرة ١٦٥

(٦٧) سورة المائدة ٥٤

(٦٤) سورة البقرة ١٦٥

(٦٥) سورة القلم ٥١ .

٧- ذكر الله

لربما ابتسم بعض الناس، ونحن نذكر هذا الركن الجليل ، وقال : نزعة صوفية : والواقع أن عصرنا هذا أفقر العصور إلى معرفة هذا الركن ، إنه يكاد يهلك جفافاً لنسيان الله ، وركضه وراء مآربه .. إن الناس في عصرنا لا يعرفون إلا أنفسهم ؛ ولذلك لا يذكرون غيرها !

والإنسان الأوربي-قائد هذه الحضارة-يصحو من رقاده ، وينظر إلى كلبه مبتسماً ، ويرمى إليه طعامه ثم يذهب إلى عمله باحثاً عن طعامه هو ، ما رفع عينه إلى السماء ! ما حَيَّ ربه بكلمة ، ما الفرق بينه وبين كلبه ؟ لافرق إلا أن هذا حيوان أعجم ، وهذا حيوان ناطق ، امتار بعقل أذكى فهو يسحر دكاءه في متعة أكبر وسيادة أظهر ... ثم لاشيء.

وقد يموت بعدئذ حتف أنفه ، أو في حرب عدوانية شنها على غيره بطرا ورثاء الناس أو في حرب دفاعية يحوضها لتأمين ضروراته ومرفهاته وحسب !

هذه إساية الحضارة العالبة ! ودعك من أديان تعيش في كمها ، ربما تساعدها على شرودها ؛ لأنها لاتدرى عن الله الحق شيئاً

ذكر الله تحديد أو تأكيد لمعرفته الأولى ، بعد الإيمان به ! ألا ترى التلميذ يقرأ كتابه ثم يعود إلى قراءته مشى وثلاث ليبقى عارفاً بما فيه

والإنسان في هذه الدنيا محتاح إلى مذكر دائم ليستديم معرفته لربه ، وإلا سى ، و طال عليه النسيان فجهل ..

وقد يكون الذكر «جهاز صيانة» يصلح ما تعطل ويجدد ما بلى حتى لاتتعطل الوظيفة الأصلية ، ويفقد ما لديها قيمته ، وذاك سرّ قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٦٨) وقوله ﴿لَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(٦٩)...

ومعنى الذكر المطلوب واضح فهو عملية عقلية روحية تعيد الانتباه ، وتحلو الصداً وتردّ لليقين قوته وأثره ! وليس هو ما يتجمع في حلقاته الحمل ، لهم بغام مسكر ! هذا رقص يحسه الدين اتخدوا دينهم لهوا ولعبا ...

(٦٨) سورة الحشر ١٩

(٦٩) سورة الكهف ٢٨

التوبة خلق لا ينفك عنه مؤمن. وقد تحدث علماء الكلام في هذا الموضوع تحت عنوان فاعل الكبيرة ! وكان لابد من الحديث عنه في دين عنوانه الإسلام أى الخضوع لله وتنفيذ أمره !

إلا أن الحديث اصطبغ بطابع الجدل والتراشق بالألفاظ والتهم ، فضرّ أكثر مما نفع

وانقسم المسلمون الأوائل فيه إلى فرق شتى : فهناك الخوارج ، وهم بدو لاخبرة لهم بأغوار النفوس وليس لديهم فقه ينسقون به أنواع الأدلة ، ولا يدرون شيئا عن آثار الظروف والملابسات في تصرفات الإنسان ! وهؤلاء يحكمون بكفر فاعل الكبيرة

وهناك المعتزلة الذين ذهبوا إلى رأى عجب ، وهو القول بمزلة بين المنزلتين ، فالعاصي عندهم ليس بمؤمن ولا كافر ! ليس بكافر لأنه يعرف الله ، وليس بمؤمن لأنه عصاه

وهناك المرجئة : وهم قوم لم يعطوا السلوك كبير قيمة ، فالمؤمن لا يفقد إيمانه بترك واجب أو بفعل محرم ، ولو بقى على ذلك حتى بلغ أجله ، وهو مذهب استرخاء وفوضى وإن شاع للأسف بين العوام ...

والجمهور على أن من لم يتب من ذنبه فأمره مفوض إلى ربه مادام قد مات على التوحيد إلا إذا استباح حراما أو جحد في فريضة ، فهو بذلك ينسلخ عن الإيمان وما نحب أن نضيف هنا جديدا ، ولعلنا استوفينا هذا البحث في كتابنا «عقيدة المسلم» غير أننا نرفض الاعتراف بما يقع الآن في العالم الإسلامى من فتن مظلمة

فهناك أناس انضموا للشيوعية ، وانسلخوا فعلا عن الإسلام ، وهم -ثقافيا- وسياسيا- مع الشرق الشيوعى

وهناك أناس تنكروا فعلا لدينهم ، وانضموا إلى الجبهة الصليبية ، يعاونونها على

وأد الإسلام وقتل شرائعه ..

وهؤلاء وأولئك ! إذا هلكوا على تلك الأحوال ماتوا على غير ديننا ، ولا يغيثهم شيئا أن يدفنوا في مقابر المسلمين ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٧٠)

تلك الأخلاق الثمانية التي أحصيناها آنفا هي عناصر حقيقية للإيمان وهي - بعد معرفة الله وأسمائه الحسنی وصفاته العلا- التي تحدد علاقة المؤمن بربه ، ولنتترك المساحات التي أضافها البعض إلى علم العقيدة فهي أقرب إلى اللغو منها إلى الجدد وثم أمر يتصل بكيان أمتنا وإن شغلنا عنه بما هو دونه ، وأعنى به الأخلاق الزكية ! خصوصا الأخلاق التي عدَّ النبي ﷺ تركها نفاقا ...

إن أمتنا شعلت نفسها بفروع الفقه وصوره الخزنية أكثر مما شغلت نفسها بالتربية الأخلاقية ، وهذا حلل هز بناءها الروحي والاجتماعي ، وأوجد أجيالا من المتشغرين لا يحسنون معاشا ولا معادا.

الحكمة والصبب الإجتماعي

ونتقل الآن إلى جانب آخر من حياتنا الاجتماعية

لقد وردت كلمة الحكمة في القرآن الكريم عشر مرات ، وجاء الأمر بتعليمها مع القرآن نفسه في أربعة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾^(٧١)

وظاهر أن تعليم الكتاب والحكمة أحد عناصر ثلاثة هي التي تكوّن رسالة محمد ، وغاياتها الرئيسية

واقتران الحكمة بالكتاب جعل البعض يتوهم أن المراد بها السنة الشريفة ودون أي مساس بمكانة السنة نرى أن هذا الفهم بعيد ، فللحكمة معنى آخر نأخذ من مواضع الكلمة في السياقات الأخرى ...

. (٧٠) سورة التوبة ١١ .

. (٧١) سورة البقرة ١٥١ .

جاءت كلمة الحكمة في سورة الإسراء بعد هذه التوجيهات : ﴿لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۖ﴾^(٧٢)

وحاءت الكلمة في سورة لقمان . ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾^(٧٣) ثم شرع لقمان بفصل حكمته في وصاياه لابنه مستدثا بعرس التوحيد ، واحترام الأيوبي إلى أن قال له ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِذَا أَكْرَأَ الْأَصْوَاتِ لِصَوْتِ الْحَمِيرِ ۚ﴾^(٧٤) ..

وحاءت كلمة الحكمة عند استعراض آلاء الله على بنيه داود في سورة ص ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ۖ﴾^(٧٥)

والحكمة هنا تتوسط عظمة الملك ، وعظمة البيان ، ويرداد معها وضوحا عندما نضم إليها ما جاء في سورة البقرة بعد انتصار داود على أعدائه ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾^(٧٦)

ويظهر أن الحكمة من حصائص النبوات التي تسوس الناس ، وتسمى ملكاتهم النفسية ، وتنظم صفوفهم في طاعة الله بشتى التوجيهات ، وذلك ما تشير إليه سورة النساء عند تقرير اليهود ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٧٧) أي أن الحكمة وإن عنت الآداب والسير الرفيعة فهي تعنى كذلك الشرائع التي تشد أوصال المجتمع وتحرس كياهه

وقد ذكر الله سبحانه في سورة آل عمران أنه أعم بالحكمة على عيسى بن مريم

(٧٢) سورة الإسراء ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٧٥) سورة ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٧٣) سورة لقمان ١٢ .

(٧٦) سورة البقرة ٢٥١ .

(٧٤) سورة لقمان ١٩ .

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾^(٧٨)

إن هذه الحكمة رحية الدلالة ، ولكنها تضم أول ما تضم التوجيهات والتقاليد التي تتماشك بها الجماعة ، كما يتماشك الجسم بجهاز عصبي ذكي سريع ...
وأحسب أن الحكمة هي المعنى الباطن لكلمة الميزان ، وأن الميزان هو الجواب العملي لكلمة الحكمة. وقد وردت كلمة الميزان في مواضع من الكتاب العزيز. منها قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾^(٧٩)... وقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٨٠)
والمعنى الذي لا يحصى عنه أن المجتمع لا بد أن يتوازن بالعدل ، وأن يترابط بالحكمة ، وأنه لا مكان في بناء المجتمعات للعبث والفوضى والجور ، وإشباع الجوع إلى العلو والظهور ، وإرضاء الراغبين في الاكتناز والتكاثر ..
ولا مكان في مجتمع مؤس لسيادة الجهل ، وإقرار الفساد ، والحيف على الصعاف إذ لا يسمح هذا «ميزان» ولا تسمح به «حكمة»
التخطيط الصحيح لبناء الأمة

إن الله يوصي الجماعة الإسلامية أن تتعاون على البر والتقوى ، وأن تتواصى بالحق والصبر ! ركان المفروض في مجتمع حكيم متزن أن تفشو فيه الأجهزة التي تُيسر الزواج وتمنع الزنا ، والتي تجمع الزكاة لتحارب الفقر ، والتي تعهد الأوقات لتقيم الصلوات ، والتي تقيم المدارس لتنشر العلم ، والتي تؤسس المطابع لتنشر الكتاب .. الخ

غير أن هذه الأجهزة تكون تلقائيا في عصور متقطعة ، أو تكون ما يؤدى رسالتها ، ثم بقى الإسلام في « وصاية » الأفراد لأن الحكومات كانت في واد آخر ..

فكيف تتوطد « الحكمة » أو يعتدل « الميزان » في هذا الحو النكد ؟

إن الأخلاق كالزروع الذى يحتاج في نمائه ونضجه إلى متابعة ورعاية والتقاليد التي تمسك الأمة وتمنع ميزانها أن يجور أو يغش تحتاج هي الأخرى إلى

(٨٠) سورة الحديد ٢٥

(٧٩) سورة الشورى ١٧

(٧٨) سورة آل عمران ٤٨

عقل ناقد وضمير حارس !

وقد رأيت الأخلاق والتقاليد عندنا تحيا وحدها ، أو تبقى في ضمان أفراد طبيين ! أى أن الأمر يخضع للمصادفات العارضة لا للسياسات المرسومة وقد نتج عن ذلك-مع ما أصاب الإسلام أخيراً من هزائم-أن صار الكثيرون ينجون بلا هدف ويتجمعون ويتفرقون بلا رباط ولا وعى ... ولا انتماء ويستحيل أن يقوم للإسلام مجتمع بعد هذا التفكيك الشائن ، بل هذا طريق التلاشى والفناء

والتخطيط الصحيح لإعادة بناء الأمة (إقامة الميزان) الذى أنزله الله مع كتابه يحق الحق ويبطل الباطل ويحترم تقاليد الشرف ويرسى دعائم الأخلاق .. قال لى صدين : إن فلانا قضى على مستقبله ! قلت : كيف ؟ قال : ضُط في موقف شحاعة !! أما فلان فهو فاشل من زمن طويل لأنه يأبى أن يكون إمعة ..!! و ...

قلت : أمسك عليك لسانك إن الإيمان الحق لا يصيب أحدا بالإفلاس ! وما يذهب العرف بين الله والناس .. وإنما تنتحر الأمم بتمردها على الوحي الإلهى ، ورفضها تعلّم حكمته ونصّب ميزانه

وأرى إشعار العامة والخاصة بأنهم لا يعرفون الإسلام إذا لم يعرفوا هذه الحقائق ..

إن علوم الدين ليست كلاماً نظرياً فى العقائد ، ولا سرداً تافهاً لأشكال الطاعات ، وأحكام الفروع الفقهية !

إذا فسد القلب فسد كل شيء ، وإذا انفصل المجتمع عن العقل المؤمن هلك وبقي من علم الدين شيء ، لاند للمسلم أن يأخذ نصيبه منه ، هو علم الدنيا ...!

إننى أفهم أن يدخل الغزاة البيض مجاهل إفريقية ، فيسموا أنفسهم معمرين !

لقد وجدوا قوما لا يكادون يفقهون قولاً فسرّقوا منهم أرضهم ، ونفطهم
وذهبهم ، وحازوه لأنفسهم ! وألهوا جمهورهم بفتات الموائد ، وبعض اللّعب التي
صنعتها المدنية الحديثة ، ولانسى أنهم ألهوهم كذلك بصحائف من الكتاب
المقدس ، على أن يكون ولاءهم للجنس الغازى ...!

لكن لم أفهم ، ولن أفهم أبداً ، لماذا يدخل الغزاة البيض إلى أرض الإسلام
معمرين ؟

لماذا يجحون في إحصاب الأرض الجدية حيث يفشل مسلم—أو بتعبير
أصح—مدّع للإسلام ؟ ولماذا يتصاعف إنتاج الأرض في أيديهم ويقل في أيديا أو
يتجمّد ؟

لماذا يستحرحون الكور من بطن الأرض ، ولانحسن بحر استغلال ما استحفى
وما استعلن من ثرواتها ؟

إذا كان بعض الناس يقدّم للمحاكمة على جرائم ارتكبتها ، فإن هناك أما يحب
أن تحاكم على تفریطها الشائن فيما لديها ، خصوصاً الأمة التي قال لها ربها
﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ حَمِيعاً﴾^(٨١) ..

والإسلام طلب من أتباعه تحويد علوم الدنيا لأمر ثلاثة

أولها : أن تعمير الأرض جزء من رسالة الإنسان على ظهرها ، جزء من العادة
التي خلق من أحلداً ، جزء من الكدح الذي يصون به نفسه وأهله وشرفه ..
والثاني : أن الله لم يخلق الإنسان ليشقى ، ويجوع ويعرى بل خلقه مكرّماً
يحمّله ما في البر والبحر ، وأحلّ له الطيبات ، ويسرّ له الرينة والجمال ، مما فوقه
من نخوم وبما بين يديه من زرع وضرع ..

وقد شرحنا ذلك بإفاضة في أماكن أخرى من كتبنا فلا نزيد هنا شيئاً .

لكن الأمر الثالث هو الذي لا سأم من تكراره ، فإن الجهاد المكتوب على
المؤمن لحماية الدين لا يمكن أن يتم ولا أن ينجح بعيداً عن التفوق المدني
والحضارى

(٨١) سورة القرة ٢٩

والأمة الإسلامية كى تكون على مستوى دينها ، وكى تنجح فى المحافظة عليه ،
وكى تستطيع إفهامه للآخرين ، لابد أن تكون راسخة القدمين فى شئون الحياة
كلها ، بل يجب أن تكون سبابة فى شتى الميادين ، مسموعة الكلمة فى آفاق العلم
برا وبحرا وجوا ..

ومن حق الأمم الكبرى-وهى أم تحتقر الأمية العلمية والصناعية-أن تنظر إلى
دعاوى المسلمين وأفكارهم وقيمهم برية أو سحرية مادام المسلمون نمادج رديئة
للتخلف الإنسانى ..

وفى ظنى أن لهذه العلة سببين : أحدهما ثانوى وهو تغلب طبائع البدو على
تعاليم الإسلام ، فإن البدو يكرهون الحرف ، ويزدرون الصناع ، وينظرون إلى
الفلاحين نظرة نابية ، إنهم يأكلون من كدّ أيّامهم ، ومع ذلك يترفعون عليهم !!

وقد كانوا قديما يشترون السيوف من الهند وما جاورها ليستعيروا بها على العرو
والسطو ولا يكلفون أنفسهم صناعتها ، ولا يزال أعداد من الأعراب يرون
الحداثة والتجارة مهانة ، ويأبؤون بشمم أن يقوم أحدهم من تحت سيارة يصلحها
أو جرار يكشف سبب عطلة ...

وكنا ندرس ونحن طلاب أن لفظ «آل» لا يضاف إلا إلى الأشراف ، فلا
يقال : آل الحجام ولا آل الإسكاف !!

ولا ريب أن لهذه البداوة الغبية أثرا ملحوظا فى دنيا العرب إلى اليوم
أما السبب المهم فى التخلف الحضارى فهو شيوع التدين المزيّف ، ووقوع
الثقافة الدينية إجمالا بين طوائف من ذوى المعادن الرخيصة أو العقول المعتلة ...

ويغلب على هؤلاء التأثير بالزهد الهندى أو النصرانى ، والرغبة عن الدنيا ،
وعصيان نداء الفطرة ، والعرام بالمبتدعات ، واتهام النزعات العقلية ...

وكان العرب على عهد الرسالة يرون أنفسهم أرجح من الروم واليهود عقلا ،
وأقوى خلقا ، وأقدر على أعباء الحياة وخدمة المثل العليا

وذكر القرآن الكريم رأى العرب في أنفسهم ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ
عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ . فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ﴾ (٨٢)

وعلى أية حال فإن العرب كانوا أصلح لنزول الرسالة فيهم ، وما كانوا قط
أعجز إنسانية من الروم والفرس ، ولا كان هذا التخلف السحيق بينهم وبين
غيرهم من الناس ..

وقد حملوا الإسلام باقتدار ، وأحسنوا تبليغه إلى الدولتين الكبيرتين في عهد
الخلافة الراشدة ، فلما اشتبكوا في قتال مع عدوهم كان تنامي حماسهم وتساند
إخائهم مكملًا لقلّة العدد ، ولم يكن السيف دون السيف ولا الخيل دون الخيل ..
وجربّ الفرس سلاحًا لا تعرفه العرب هو الفيلة ولكن سرعان ما احتال
المسلمون على الإيقاع بها ففرت مذعورة ترمى من فوق ظهرها ..
أما اليوم فلا تستطيع الموازنة بين التقدم المدني والعسكري عندنا ... وعند
غيرنا !!

إن كل علم يطوى مسافة هذا التخلف هو من أركان الدين ، وفرائض
العبادات العينية والكفائية

وهو أولى من نوافل العبادة ومساائل الخلاف التي برع فيها الفارغون ، واشتغل
بها المنتطعون !!

مرتبة أخرى من المعرفة الدينية

ما قررناه في الفصل السابق كان عن النصاب الأدنى للمعرفة الدينية التي
يحصلها المسلم العادى بيد أن الأمة الإسلامية لها شأن آخر ! ذلك أنها رسالة
عالمية تشمل الزمان كله والمكان كله ...

فالمسلمون مكلفون بهداية الفكر الإنسانى ، والقلب الإنسانى والواقع الإنسانى
في كل موقع من دنيا الناس ! وهل يستطيع ذلك جاهل بقضايا الفكر والقلب
والواقع ؟

(٨٢) سورة الصافات ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠

وهل ينحج في ذلك غافل عن سنن الله في الأنفس والآفاق ، مححوب عن الأسرار والقوى التى أودعها الله بين يديه ومن خلفه ؟

إن عالمية الرسالة تكلف أمتا كثيرا كثيرا ، وقد هض الصحابة والتابعون بهذا العبء ، فكانوا امتدادا لإشعاع النبوة الخاتمة ، ثم أحد الرجال الكبار يقلّون شيئا شيئا حتى كادت الأمة تصاب بالعقم .

وتعاركت البيوتات العربية على الحاه والمال ، والإمارة والوزارة ، حتى استحففت حقائق ماكان يحور أن تستحفى !

ولنتساءل أولا : ما القوى التى اعترضت الإسلام أول ظهوره ؟ وماذا عرض لها على اختلاف الليل والنهار ؟ وماذا كان موقف المسلمين منها على ماجدّ لها من أحوال ؟

إن الوثنية العربية تلاشت في أرجاء الجزيرة على عهد النى نفسه ، وعادت لها صحوة الموت بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ﷺ ولكن أصحابه وحلفاءه أحمدا أنفاسها إلى الأبد !

والمحوسية الفارسية مزّقت شر ممزق ، وبادت الكسروية وعمّ الإسلام هذه الربوع ، فتلاشت المجوسية كما تلاشت الوثنية العربية من قمل ..

وقضى المسلمون على المستعمرات اليهودية داخل الجزيرة بعد ما يئسوا من محاسنتها لكن اليهود-وهم قلة ماكرة ماهرة-استأنفوا حرب الظلام بعد ما حسروا الحرب المكشوفة واستطاعوا بمؤامراتهم قتل الحلفاء الثلاثة عمر وعثمان وعلى .. ولا أدري لماذا لم يعلّق مؤرخونا على الأحداث والفتن التى ذهبت بالرجال الثلاثة ويظهروا دور اليهود في استثارة الدهماء ، وإشعال المعارك ، وإبطال جهود المصلحين ؟

على أن اليهود عادوا مرة أخرى بعد أربعة عشر قرنا يصيحون بالثارات خير ، يتحدثون عن أرض الميعاد التى كتبت لهم ! والغريب أن العرب كانوا قد نسوا استخلاف الله لهم في الأرض ، والحق الإلهى لهم في فلسطين فشرعوا يحاربون اليهود بأنهم أبناء كعنان أخى عدنان وقحطان ، وأن جنسهم أصل ، وأهم أحق بهذه الأرض ! أللعنة الله على الظالمين !!

وبقى الصراع الذى لم تخب ناره يوما ! الصراع بين الصليبية والإسلام !
ويبدو أن هذا الصراع باق إلى آخر الدهر ! ولنا كلمة عاجلة قبل الخوض فيه ،
إن الإسلام يكرم المسيح وأمه ، ويقطع دابر من يחדش شرفهما أو يتناولهما بما لا
يليق !

ومع حزم الإسلام فى تحريد التوحيد من أى لبس ، وتوكيده عبودية الخلائق
كلها لله ، فقد قرر أن يعيش فى كنفه القائلون بالثالوث وبسط حمايته عليهم ،
وصان كنائسهم وشعائهم ، فما سرُّ العداوة الهائلة التى يكنها الصليبيون
للإسلام ؟

السّرّ سياسى لا دينى ! فإن الروم كانوا دولة النصرانية الكرى قبل ظهور
الإسلام ، والرومان دور من أدوار الصراع الأزلى بين الشرق والغرب ، وقد
استطاعوا قبل اعتناقهم للنصرانية أن يسيطروا نفوذهم على أقاليم فيحاء ، ثم رأى
قسطنطين أن يشدّ أعصاب الدولة بالدين الجديد فجعل النصرانية دين الدولة

ترى أنتصر الروم أم تروّمت النصرانية ؟ إن وصايا المسيح التى لا تزال مكتوبة
« من ضربك على خدك الأيمن فأدره له الأيسر .. الخ » فهل أفاد الرومان من هذا
الكلام حرفا ؟ أم بقوا جنسا باطشا ظلوما يستهلك الشعوب ويسطو على كل ما
تملك ؟

الحق أن انتماء إلى المسيح كان غطاء لوحشية مخيفة ، وأن الانتماء إلى المسيح
شرف دونه الأوربيون قديما وحديثا .. إن القوم كانوا مستعمرين غلاظ الأكباد
مقبوحى السيرة ، ولا يزالون كذلك ...

والروم قديما ، والفرجة حديثا ، وأجناس أخرى تدعى « المسيحية » أولئك
كلهم يكرهون الإسلام ؛ لأنه الدين الذى ردّ هجومهم ووقف طمعهم .
فالمسلمون العرب طهروا الشمال الإفريقى وآسيا الصغرى من الاستعمار الرومانى
القديم بعد أن ظل نحو ستة قرون !

والمسلمون الترك تعقبوا الأوربيين فى أقطارهم الأولى حتى بلغوا أسوار « فينا »
عاصمة النمسا ، ومكثوا يقاتلون الأوربيين نحو خمسة قرون ..

من أحل ذلك - تهنى ضغائن الأوربيين على محمد ودينه ، بل هم يفقدون

اعتداهم الفكرى ، والنزاهة النفسية عندما يتحدثون عن الإسلام ..
وما ذنبنا نحن بإزاء هذا العوج ؟ ذنبا الحقيقى أننا لم نكن أوفياء لرسالتنا ، ولا
جاذبين فى تعرف العقبات التى تعترضها ، ولا طبائع الأجناس التى تقاومها ..
هل درس آباؤنا العلاقات بين البابوات والأباطرة ؟ هل درسوا اختلاف
الكنائس شرقيا وغربيا ، وتابعوا هذا الاختلاف بعد ظهور « مارتن لوتر »
وانشقاق أتباعه ؟

هل درسوا التيارات الفكرية ونزعات الإصلاح الدينى والمدنى هناك ؟
هل يعلمون شيئا عن عصر الإحياء ، والنقلة الرائعة التى قفرت بها أوروبا من
أوج إلى أوج ؟

هل درسوا السمات الجديدة للفكر الفلسفى الحديث ؟
هل درسوا النشاط التبشيرى بعد كشف الأمريكين ، وكيف انساحت
الكتلة فى أمريكا الجنوبية والبروتستانتية فى أمريكا الشمالية ، وفى استراليا ؟
هل لفت انتباههم توغل الدب الروسى فى آسيا مكتسحا دار الإسلام ،
وحاملا الخراب والكفر إلى المدائن والقرى ؟

هل عرفوا لماذا قتل الإنكليز مليكهم مؤمنين حقوقهم الدستورية ؟ ولماذا قامت
الثورة الفرنسية بعدئذ معللة ما يسمى حقوق الإنسان ، وإن كان الفرنسيون
أكذب أهل الأرض فى الاعتراف لغيرهم بهذه الحقوق ؟

إن الدراسات الكونية والطبيعية نقلت العالم من عهد البارود إلى البخار إلى
الكهرباء إلى الذرة إلى عصر الفضاء ، والمسلمون صرعى ثقافات مسمومة
وسياسات قوامها الحروت لاتهت حق الحياة والكلام إلا لمن يحرق بين يديها
البخور ...

أهذه أمة تحمل رسالة عالية ؟ إن الذى يبتغى إصلاح الأفكار والمشاعر لابد أن
يدرس الفكر فى كل قطر ، وأن يستبطن أحوال الناس على أمل تركيبها والتسامى
بها

وما نستحى من اتهام أمتنا بالتفريط إلى حد الخيانة فى خدمة دينها ولغتها وتراثها

ويومها وغدها ! إننا لم نكن نعرف أنفسنا فكيف نعرف غيرنا ؟ وكنا قد نسينا ديننا ! فبم نذكر الآخرين وفاقد الشيء لا يعطيه ..

إن الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى صدّق وعد الإنكليز له أن يكون ملك العرب ناسيا أن الإنكليز وعدوا مصر بالجلء عنها سبعين مرة ، وما وفوا لها بوعدها ...

لقد كنا في العلوم المنقولة والمعلقة أصفارًا ، وكان تاريخنا الطويل صحراء لا معالم لها

ولو كنا على مستوى الإسلام لكان لنا باع طويل في كل فن ، ولزاحمنا بالناكب في كل الكشوف المادية والأدبية والعلمية التي هديت إليها الفطرة بعد سياحات يسيرة أو شاقة

والغريب أن ناسا من جلدتنا لا يزالون باسم الدين يريدون استبقاء قيود التخلف والضياع ...

إن ذلك يؤكد الحاجة إلى علماء بحور ، بحور في جميع المعارف الإنسانية ! لا فارق بين معقول ومنقول ، ولا بين ماديات وأدييات ، ولا بين غيبيات ومحسوسات

ووظيفة أولئك العلماء هي أولاً : تخريج ذوى الأنصبة المحدودة التي أشرنا إليها في الفصل السابق ، والتي تمثل المستوى الأدنى لرجل الشارع كما يقولون أو للمسلم العادي

ثانياً:الظرف في أساليب الدعوة العالمية وطرق شرح الإسلام خارج أرضه ، وردّ الشبهات التي مرّد أعداؤه على ترديدتها ، وتوارثوا الشعب بها على الرسالة الخاتمة ويؤلمنا أن هناك أمة مخيفة في علماء الدين واللغة ، وأن بقاياهم تنقرض دون عوض ظاهر

وقد كان أولئك العلماء كثرة في العصور المتقدمة ، وما ضارهم أن الحكومات تنكرت لهم ، بل كان ذلك في نظر الجماهير شرفهم الباذخ ، ثم بدعوا يقلّون كما وكيفاً

ثم جاء عصر المتأخرين من الفقهاء ، وكانوا دون من سبقهم وعيا وذكاء ، يغلب عليهم الصيق والاستيعاب اللفظي

وأخيرا جاء دور أنصاف العلماء ! وهم قوم لهم في كتب الدين قراءات مبتورة لا تميز عثا من سمين ، ولا تعرف أصلا من دخيل ، وقد اقتحموا أبواب الدعوة والفتوى وأحدثوا فوضى شديدة . .

هذا مفسر للقرآن يقول : إن آية لا إكراه في الدين مسوخة ..!! ويمضي في عماء لينسخ عشرات ومئات من آيات القرآن الكريم كلها محكمة ..!

وهذا متحدث في السنة يقول : إن حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله » على ظاهره ، وهو جاهل ! ولم يقل أحد من العلماء إن الحديث على ظاهره ، بل قالوا : هذا عموم أريد به خصوصي ! وكلمة الدين تعنى قوما معينين شرحهم أوائل سورة براءة ..

وهذا متحدث في العقيدة يقول إن وصف الله بأنه واجب الوجود بدعة ! قلت له : كلمة واجب الوجود ليست من أسماء الله الحسنى فهذه الأسماء توقيفية من الشارع .. لكن وصف الله بها فيه ملحظ جميل ! إن القمر جسم مظلم ، وبوره بالليل هو من انعكاس ضوء الشمس على سطحه كذلك الكائنات كلها لا وجود لها من ذاتها ، وإنما وجودها من ذات الله الذي مسحها الحياة والبقاء ، فهو مصدر إيجادها وإمدادها ، وله وحده الوجود من ذاته ..

قال : هذا كلام الفلاسفة ، وهو بدعة وكل بدعة ضلالة ! قلت له : لا تسو بين عدو وصديق ! هناك فلاسفة ملاحدة ، وهناك من عرفوا الله ..!

لكن هذا المتكلم يستبيح دمك إذا مضيت في ماقشته !
أى بلاء يقع فيه العلم الديني إذا كان رجال التفسير والحديث والعقيدة من النوع الهابط .

لذلك قلت : إننا فقراء إلى علماء من طراز رفيع ، والقحط الثقافي الذي حل بتاريخنا من عدة قرون أتاح للاستعمار أن يصنع سا الدواهي ! لقد دق أبوابنا

والجهل العام آخذ بخناقنا ، في علوم الدين وفي علوم الدنيا على سواء ..

نعم جاء أحفاد الرومان وأبناء الصليبيين هذه المرة ، وتفوقهم كاسح في علوم كثيرة ، ولم تقدر الحماسة العاجزة على صديارهم ، فوقف ماريتال « اللسى » في مدينة القدس يقول : اليوم انتهت الحروب الصليبية ! ووقف القائد الفرسى في دمشق أمام قبر صلاح الدين يقول في تبجّج : ها ... قد عدنا يا صلاح الدين ... !

وما صلح به أمر المسلمين أولا هو العلم الصحيح والحكم الصحيح ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..

وقد نتح عن قصورنا العلمى ما مكن الغزو الثقافى من مهاجمة عقائدنا وشرائعنا بطرق مختلفة نعالجها فيما يلى ...

جيل يذهب ضحية العجز والغدر

بين يديّ كتاب مدرسى مقرر على طلاب الثانوية العامة في دولة إسلامية عريقة ، وثابت على علاف الكتاب أنه لجميع الشّعف التي تريد بيل « البكالوريا » طالعت في هذا الكتاب الموضوع الذى يهمنى ويهم كل مسلم ، موضوع « الإيمان بالله واليوم الآخر » وشعرت بعصّة والمؤلّف ينقص أسس هذا الإيمان ، ويجعل منه حكاية أسطورية من محلّفات ماضٍ قليل الوعي ...!

وتساءلت : هل تضليل الألوف من أنائنا على هذا الحو جريمة فردية ؟ أعى هل هذا المؤلّف ملحد يريد نشر فكره لرعبة خاصة لديه وحده ؟

أم أنه يحدم جهات تريد تخريج نشء خرب القلب ، حامح الهوى ، فتقرر هذا الكتاب على كل شاب يريد الالتحاق بالجامعة ليطمئن الاستعمار الثقافى بشقيّيه الشيوعى والصليبي على مستقبله فى بلادنا ؟

أضحكنى رعم المؤلّف أن الإيمان بالآخرة تصدّع لما اكتشف كوبرنيكى أن الشمس لا الأرض مركز الكون ! وأن الأمر على خلاف ما تعتقد الكنيسة !

قلت : ما صلة الآخرة بهذا الكشف الملكى ؟ ولماذا يئأس الناس من عودتهم إلى الله ، لأن الأرض هى التى تدور حول الشمس لا العكس . ؟ هذا الربط العلمى العظيم يشبه القول بأن أنف أبى الهول تحطم لأر ملكة حلترا أنجبت ولدا ذكراً !!

إن الكنيسة تخطئ وتصيب ، وهى فى زعمها أن الشمس تدور حول الأرض لم تعتمد على وحى سماوى : بل كانت تتبع رأى أريسطو ، وقد حالف أريسطو فى هذا الزعم « أريستا خوس الساموسى » مؤكدا أن الأرض هى التى تدور حول الشمس ..

فليحتلف فلاسفة اليونان وكهنة الكنائس ، فى هذا الأمر ماشاءوا ! ما علاقة

ذلك يجعل اليوم الآخر خرافة ؟ لكن هذا هو الفكر العلمي عند أهل الإلحاد
ومضى المؤلف يقول : إن قضية الآخرة انهارت بعد ظهور نظرية التطور
وثبت أن الإنسان من سلالة القردة ! وهو يرى أنه أشرف للإنسان أن يكون من
سلالة الحيوانات ، فهو خير له من أن يكون من أبناء القتلة .. !

ولنذكر عبارات المؤلف الفيلسوف بصها ، قبل التعليق على أوهامه التي
يحسبها علما (!) يقول : « في العصور الوسطى نظرت الكنيسة إلى الإله على أنه
أشبه ما يكون بسيد يرى الخدم الذين يعملون في أرضه ، وهو حر في أن يطلب
منهم مغادرة الأرض ساعة يشاء ، وأن يطلب منهم « الحساب » . كذلك
الله خلق الإنسان وميزه عن باقي المخلوقات ، وسخر له جميع ما في الكون ،
وهو الذى يحدد نهايته عندما يريد .

إلا أن هذا الموقف تعرض لصعوبات ، بسبب بعض الاكتشافات العلمية (!)
أ- إن اكتشاف كروية الأرض ، ودورانها حول الشمس مع كواكب أخرى
من طرف (غاليليو) ومن قبله (كوبرنيك) . أضغف من موقف الكنيسة التي
كانت ترى أن الأرض ثابتة . وهى مركز الكون . وأن الإنسان كائن ممتاز ،
سحرت له جميع الكائنات الأخرى !

عندما قال (غاليليو) بدوران الأرض . اعتبرت الكنيسة هذا الموقف منافياً
للذين ، بل خطراً عليه ، لأنه يفقد الإنسان الامتياز الذى منحه الله إياه ، ولم
تتردد الكنيسة فى الحكم على (غاليليو) بالموت .

ب- الصعوبة الثانية التى تعرض لها الموقف الدينى ، كانت على يد (دارون)
الذى جاء بنظرية التطور . ولقد وصلت نظرية التطور إلى النتيجة الآتية : وهى
أن لا فرق بين الإنسان والحيوان إلا من حيث الدرجة لا من حيث النوع : ويجب
أن نقبل أن يكون أجدادنا قروداً ! بل إن (دارون) يدعو إلى الافتخار هؤلاء
الأجداد لأن الانتساب للحيوان - كما يقول (دارون) - أفضل من الانتساب إلى
الإنسان ، الذى يقتل أخاه الإنسان بدون مسوغ

إذن لم يعد الإنسان فى نظر (دارون) كائناً ممتازاً ، بل أصبح مجرد كائن يحتل
رتبة متقدمة فى سلم التطور .

وهذا يتنافى بوضوح مع الدين الذى يرى أن الله مَيَّزَ -منذ بدء الخليقة- بين الإنسان وبين الكائنات الأخرى .

ح- إن علم الاجتماع وهو أحدث العلوم التى استقلت عن الفلسفة ، يؤكد لنا حقيقة موضوعية وهى أن الإنسان وليد البيئة وأن جميع ما يأخذ به من أفكار ومعتقدات ، ليست نهائية ومطلقة ؛ لأنها تختلف من مجتمع لآخر ، ومن عصر لآخر . فما قد تعتقده جماعة ، قد ترفضه جماعة أخرى .

د- وهناك صعوبة أخرى واجهها الموقف الدينى بعد اكتشاف التحليل النفسى . إن التحليل النفسى يؤكد لنا أن أفكارنا ومعتقداتنا ليست مطلقة . بل هى نتيجة لعوامل خفية ، أو لا شعورية .

فإذا لجأ البعض إلى التدين ، فما ذلك إلا ليعبروا عن رغبات مكبوتة ، وكان يمكن لهم أن يلجأوا إلى وسيلة أخرى للتعبير عن هذه الرغبات . فالتمسك بالدين ليس إلا مظهرًا خاضعًا لعوامل لا شعورية ، ويرى (فرويد) أن هذه العوامل تكون فى الغالب عوامل جنسية .

هذه أقوال متناثرة جُمعت على استكراه لتخلق صعوبات عقلية أمام الإيمان باليوم الآخر ، أو اللقاء المحتوم مع الإله الذى خلقنا أول مرة ..

وقد حاولت عبثًا أن أفهم منها ما يريد المؤلف معجزت ، خذ مثلاً كلامه عن علم النفس ، إن فرويد يرى الغريزة الحسية الأساس الفذ للسلوك البشرى أجمع ! وقد رأت باحثة أخرى أن غريزة الأكل أولى بهذه الصفة فهى التى تستهلك أعمار البشر ! وترهق أعصابهم بمطالبها ، ورأى باحث ثالث أن غريزة « الشعور الإيجابى بالذات » من وراء الكفاح الرهيب على ظهر الأرض ..

ثم تخطى علم النفس نظرية الغرائز « لمكدوجل » ، وتحدث عن دعائم أخرى للسلوك الإنسانى ، لانشرحها هنا ..

والذى ألاحظه أن الناس متفاوتو الطباع ، وأن هناك من يهيم بالنساء ، ومن يهيم بحب المال وطلب الثراء ، ومن يضحى بكل شيء طلبًا للظهور والرياء !!

وقد عُرض على الأفغانى الزواج فأبى ، وعاش ابن تيمية أعزب ، وكذلك كان أبو مسلم الخراسانى ، وكل من هؤلاء كان له شأن يغنيه !

وقد تكون العريضة الحنسية شديدة الوطأة ، لكن عرامها أو هزالها لا علاقة له بعقيدة « المصير » أو البعث والجزاء ، كما يرغم هذا المؤلف ..

وستقل إلى علم الاحتجاج والباحثين فيه ، ومنهم التائه والراشد ، والبصير والضير !! هل إذا قال أحد هؤلاء : إن الدين ظاهرة اجتماعية ، فإن كلمته تصبح حكما فصلا ليس بالهزل ؟ إن الدين حقيقة عقلية ، وحلقية ، وعلاقة قائمة بين الناس ورب الناس

عن أى دين يتحدث هذا المؤلف ، أو ينقل عن سحبتين ؟ عن عبادة الأحجار أو عبادة الأبقار ، أو عن تصور الألوهية وفق شائعات غامضة وأقوال متناقضة كبعض الأديان السماوية ؟

إن التحقيق العلمى لا يعنى المؤلف ، إن ما يشد انتباهه ، هو وصف المتدينين بأنهم ينفسون عن رغبات حنسية (!)

سبحان الله ، هل الذين أجهزوا على الاستعمار الرومانى والفارسى قديما كانوا صرعى كست جسى ؟ ما أخرج العالم اليوم إلى هذا الكبت !!

الإلحاد ... مرض

نخلص إلى قضية التطور كما يشرحها دارون ! يرى الشيخ نديم الجسر فى كتابه الجليل : « قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » أن دارون مؤمن بالله وأأنشاطه الفكرى يدور حول : هل صدر العالم عن الله بصورته المعاصرة ، أم أنه صدر عنه فى صورة أدنى ، ثم صعد فى سلم الارتقاء إلى ما نراه الآن ؟؟

ولم يقدم دارون إجابة حاسمة فى الموضوع الذى عاجله لأن هناك حلقات مفقودة تجعل نظرية النشوء والارتقاء محاولة مبتورة ، زد على ذلك أن تلامذته الأقرين نقضوا الكثير من مقدماته ، مما جعل الفكر الداروينى يحسر ويتراجع ! فأى منطق علمى يسوق المؤلف لتسباب الثانوية العامة فكر دارون على أنه حقيقة علمية مؤكدة ، وأنه يفهم من هذا الفكر أن الإنسان تراب فقط ، وإلى التراب ينتهى ويتلاشى فلا بعث ولا جزاء ..

فى أى معمل كىماوى أو مرصد فلكى ثبت أن الروح خرافة ، وأن النفس الإنسانية بخصائصها العالية عَرَض عابر ، أو وهم لا بقاء له ..؟

لا ريب أن الإنسان خلق من تربة هذه الأرض كما قال تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٨٣)

ونحن نشهد نبات الأرض يتحول فى حسومنا إلى لحم ودم ، فمن يحوله كذلك ؟ من يحوله إلى خلايا دات وظائف مذهله ؟ كيف يُتصَوَّر أن الروح هى الأخرى حفنة تراب ، وأن الشعور والفكر والعاطفة والذاكرة والخيال بعض الطين المنتثر فى أرضنا ؟

إن لدى بعض الناس جنونا فى إرسال كلمات موعلة فى الكذب ، قال لى أحدهم : إن العلم بدأ يخلق الأطفال فى الأنابيب ! قلت : كيف ؟ إن الطبيب يحىء حيوان منوى لم يخلقه يقينا ويضمه إلى بيضة من الأنثى لم يخلقها يقينا ، ويضع ذلك فى مجبار لمدة عشر ساعات ، أو أكثر قليلا ، ثم يغرسه بعد ذلك فى الرحم ، ليبقى فى جسم المرأة تسعة شهور ، هى مراحل الحمل المعتاد حيث يضع أحس الخالقين الحين ، وتتم بعدئذ الولادة المعتادة ! ما الذى خلقه العلم ؟ إن الكفر كالحنون فنون !..

وهذه قصة ملحد آخر دخل المجلس وهو يقول : أنا عائد بعد مادرسى للطلاب أن المادة لا تفسى ولا تستحدث ! قلت له : إننى سمعت هذا الكلام وأنا طالب ، وأحسب أنه الآن قد ظهر زيفه ! قال : كلا ، هذا هو العلم ! قلت :

إذا كنت أنا وأنت قديمين فأين كما من مائة عام ؟ ما أظنا إلا حادثين بالميلاد ! قال : مادتنا قديمة ، لعلنا كنا ترابا فى مكان ما من الأرض ، وقطرات ماء فى مكان ما من البحار أو الأنهار ، أما ميلادنا فليس إلا تعيرا فى صورة الوجود ! قلت : وأرواحنا وخصائصها الفكرية والعاطفية ، إننى أحس بأنها محدثة يقينا ! قال : الأفكار والمشاعر ليست إلا تفاعلات مادية لا قيمة لها ... والروح خرافة !

قلت : فلأُصدق جدلاً أن ما حدث هو تحولات في مادة قديمة ، وليس إيجاداً من عدم ، لكن من الحَوَل ؟

من الذى حَوَل التراب الحقيق إلى بصل وحرجير ، ثم إلى قردة وحمير ، ثم إلى هذا الإنسان الخطير ؟

إن هذا التحويل يحتاج إلى مؤهلات رفيعة القدر !

قال : ماذا تعنى ؟ قلت : على حاب وحبى أذنان بهما أجهزة استقبال معقدة ، وفى الوجه عينا بهما أجهزة تصوير ، وتحميص وانعكاس واعتدال ، وهذا المح العريب ! إنه « كمبيوتر » أو حاسوب ، يهيم بأسلوب ساحر على شبكة أعصاب ، تصط الحسد كله

وهذه المضخة الماصة الكابسة فى القلب ، تدفع الدم وتستقبله بانتظام ، ثم ألا ترى هذه الكلى ؟ إنها إذا تعطلت ذهبنا إلى جهاز كبير يعالج الفشل الكلوى بعناء !

من صنع هذا كله ؟ قال : الطبيعة ذكية !

قلت ما أشبهك بشخص وقف أمام قصر منيف ثم أخذ يقول : هذه نافذة ذكية ، لأنها احتارت مكانا يستقبل الضوء ، وهذه شرفة عبقرية ، لأنها اختارت مكانا يستقبل اهواء ، وهذا سقف فنان ، لأنه اختار ارتفاعا يسمح بدخول السكان .. وهكذا وزع صفات المهندس المشئ على الخشب والرحام والزجاج .. الخ

اسمع أيها الرفيق ، إن حمار الحكيم أدكى منه . لقد ألقى الحكيم على طلابه درساً مثلك ، فرووا أن حمارة أنشد هذين البيتين

قال حمار الحكيم يوماً لو أنصف الدهر كنت أركب
فإننى جاهل بسيط وصاحى جهله مركب

إن الطى بأن الإلحاد فرط معرفة ، أو زيادة ذكاء- كما يتوهم المغفلون- لا أساس له ، إن الإلحاد مرض نفسى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ

أَتَهُمْ - فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَثُرَ مَا هُمْ سَعِيهِ ﴿٨٤﴾

ورنادقة العرب حين يردّون ما يقوله العلمانيون ، أو الماديون ، يقومون بوع
حيث من التدليس في النقل والعرض ، فقد تابعت كلام بعض الضائقين بالدين ،
والكافرين برجاله ، فوجدت لهم عذرا !!

هذا رجل ذكي نشأ في جنوب آسيا ، أو شرقها حيث يُعبدودا أو براهما ،
معاف فكره أن يحصى لصم ، أو يتسم لبقرة ، ولو كانت ضاحكة ، وأعل أنه
بعيد عن الدين ، وكافر بالإله المعهود بينهم ! فهل يقل كلامه على أنه تمرد على
الدين كله ، وكفران برب العالمين .. ؟

وإذا كان رجال الكنيسة في العصور الوسطى ، قد رأوا أن الأرض ثالثة ،
وهي مركز الكون وأن الشمس تدور حولها ، وإذا كانوا قد انتدعوا من قبل ومن
بعد أساطير في العقيدة والسلوك ، فهل الرافضون لهذه الكهانات كفار بعبسي
وإنجيله والوحي ومزله والدين وربه ؟؟

إنهم أقرب إلى الفطرة من رجال الدين أنفسهم ، والكفر بالطاعات دريعة إلى
الإيمان بالله ، ونحن-المسلمين-أعرف الناس بعبسي ، وما آتاه الله من حكمة
﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ حُتِّكُم بِالْحِكْمَةِ وَالْإِيمَانِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي
تَحْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٨٥)

وقد تدبرت كلمات لأنشتين تحدث فيها عن إيمانه بالله ، وعن إعجابه العميق
بصنعه ، وعن استشراف فؤاده لعظمته وهو يشهد آثار إبداعه وحكمته ،
فأحسست أن هذا العالم الدكيّ مؤمن بالله الحق .

وأحسست أنه يدور - وهو لا يدري - حول الآيات القرآنية في وصف الله
تبارك اسمه ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٨٦)

(٨٤) سورة عامر ٥٦

(٨٦) سورة الحديد ٣ ، ٤

(٨٥) سورة الرحرف ٦٣ ، ٦٤

والرجل أذكى من أن يخلط بين الكون ومكونه ، والمخلوق وخالقه ، بيد أنه رفض بقوة الإيمان بآله من النوع يُعرض رسمه في معابد الغرب ، آله مثقل بصفات العجز أو الغفلة ، ومن ثم فهو يعتزل هد الآله . وينأى عنه !

ولذلك كان من التدليس المفصوح أن يقل مؤلف الفلسفة للثانوية العامة عن أنشتين إنه كافر بالله ، أو ما يفيد إنكاره لوجوده ! قال : « عندما نتساءل : هل الآله موجود أو غير موجود ؟ فإن جوابنا على السؤال يرتبط بالمعنى الذى نعطيه لكلمة آله ، وهذا ما أكدّه « أنشتاين » عندما سأله أحد الصحافين ذات مرة : هل تؤمن بوجود الإله ؟ فأجاب : حدّد لى أولاً ماذا تعنى بكلمة إله ، وبعد ذلك سأقول لك إذا كنت أوّمن بوجود الإله أولاً أو من به .

والجدل الذى ينشأ عادة بين من يقول بوجود الآله وبين من ينفى هذا الوجود ينتهى إلى حذل « بيزنطى » لأن كلا منهما يعطى مفهوماً خاصاً لكلمة إله . لذلك فإن الإجماع على وجود الإله ليس دليلاً كافياً ، على أن الإله موجود فعلاً . فالإجماع قد يكون إجماعاً ظاهرياً .

وقد عرف الفكر البشرى إجماعاً على خطأ ، وهو أن الأرض ثابتة . وهى مركز الكون . فالإجماع على القول بثبوت الأرض لم يمع أن الأرض كانت تدور حتى عندما كان هناك إجماع على غير ذلك »

بهذا التدليس فى النقل ، والكذب فى التعليق يتناول المؤلف « الحقيقة العظمى » فى الفكر البشرى ، ثم يطوّح بها فى مهاوى الخرافة دونما اكتراث .. ثم يمضى فى تخيير أقوال تخدم غرضه ، وتوهين مالا يعجبه من آراء !

وظاهر من السياق كله ، أن الغاية المنشودة تضليل الشباب المسلم ، وإفهامه أن الدين وهم ، وأن الإلحاد هو منطق العلم ، واتجاه العقلاء .. مسكين هذا الشباب الذى لا راعى له ...

قد يكون من العقل الكفر بآلهة اخترعها الخرافيون ، وقد يكون من العقل ازدراء الآراء التى يرسلها الكهنة دون سند أو برهان ! فهل من العقل إنكار الآله الحق بديع السموات والأرض ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، وأحكم كل ما أوجد من الذرة إلى المجرة ؟

إن محاولة انتزاع شعرة من جلد إصبع في القدم ، تجعل المخ يرسل صيحات ألم متتابعة ويبحث على حشد أسباب الدفاع ، فهل المصادفات الموهومة هي التي خلقت هذا الجهاز العصبي الرهيب ؟

إن للاحتتمالات قانونا ينفي نفيا قاطعا كل دعوى بأن شيئا ما تخلق بطريق المصادفة ...

ثم إن قانون العلة يحكم أفكارنا كلها قَلَمَادِرِمْصُ أن يقع شيء ما دون سبب أو دون فاعل ، فإذا اتصل الأمر بخلق السموات والأرض جاء من يزعم أن هذا الوجود تم بلا فاعل ، لا سبب ؟ ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. قُلْ أَعْتَرِ اللَّهَ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (٨٧)

والغريب أن مؤلف « الفلسفة لطلاب البكالوريا بجميع فروعها » يقول : إن هذا البرهان يصطدم بصعوبة كبرى عرفت باسم « مشكلة الشر » لماذا وجد الشر ؟ كيف يمكن أن نعتقد بوجود إله قادر ، وخير ، ونعتقد في الوقت نفسه بوجود الشر ؟ لماذا لا يزيل الشر ؟

إن هذه الأسئلة الطفولية ذكرتنى بقصة طريفة فقد وضعتُ اختبارا لأحد الصفوف الدراسية ، ويبدو أن أحد الطلاب لم يكن مستعدا فخرج يقول : لو كان الأستاذ رجلا صالحا كما يزعمون ما وضع هذه الأسئلة الصعبة !

إن الطالب البليد أنكر صفة الصلاح فقط ، ولو كان فيلسوفا على النحو الذي رأينا لأنكر وجوده كله !!

الله يقول عن ذاته وعن عمله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٨٨) ... ويقول : ﴿... وَنَبِّئُوكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٨٩) فهل نقول له : مادمت تحتبرا فسننكر وجودك !!

أهذه هي الصعوبة الكبرى التي تصطدم بها أدلة الوجود على إله قادر حكيم ؟

(٨٨) سورة الملك ١ ، ٢

(٨٧) سورة الرمر ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

(٨٩) سورة الأنبياء ٣٥

تلك-ونقولها ضجرين-هى عبقرية الالحاد الذى يغزو بلادنا ويشارك فى توجيه الشرق الشيوعى والغرب الصليبي على سواء ...

مسئولية المسلمين تجاه الإلحاد

الواقع أننا-نحن المسلمين-المسئولون الأوائل عن ظهور هذا الإلحاد فى بلاده ، وعن مصاب الإنسانية عامة به ثم عن اكتوائنا بناره بعد ذلك ...! فلولا تقاعسنا عن أداء رسالتنا الكبرى ، ما كانت المعركة بين العلم والدين ، وما استفحل خطر الإلحاد على هذا النحو المزعج ، وما استشرت المذاهب المادية وفتكت بالجماهير كما نرى ...

كان لدينا ما يقنع العقل المتطلع المستكشف ، وكان لدينا ما يشبع الطبيعة البشرية المتشوفة إلى الرضا ، وكان لدينا ما يوفر الكرامة الفردية والاجتماعية لإنسان نفخ الله فيه من روحه ، فهو يفيض الهوان والإهانة ..

لكننا جهلنا ، أو تجاهلنا ومضينا فى طريق آخر ، أحيينا فيه مساوىء أهل الكتاب السابقين

إن الله يقول لنبيه محمد ﷺ ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ^(٩٠) ﴾ المهمة واضحة ، فغاية الرسالة استنقاذ الناس من ظلمات الفوضى والجهالة والفساد والاستبداد إلى آفاق أزكى وأسمى ..

والرسول لا يحيا للدهر كله ، وإنما تقوم أمته بعمله بعد موته ، ولذلك يقول الله ﷻ ﴿ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .. ^(٩١) ﴾ أى أن مهمة الأمة إعلان حرب على الظلام حيث كان ، بالعلم يحارب الجهل ، وبالعدل يحارب الظلم ، وبالنظام تحارب الفوضى ، وهكذا ..

لكن أمتا-عفا الله عنها-اعتراها إعماء ، ولا أقول موت ، فلم تؤد الوظيفة المنوطة بها ، وذهلت عن عالمية الرسالة التى كلفت بأدائها ، وحسبت أن الإسلام نظام داخلي لها وحدها ، فقبت وراء حدودها ، تحيا وفق ما يتاح لها من حياة ، وتمزق أودية الإسلام التى لفتتها الأقدار لها لتوارى سوءاتها ، ومازالت كذلك

(٩٠) سورة إبراهيم ١

(٩١) سورة فاطر ٣٢

حتى وثب خصومها عليها ، ليلغوا أولاً شريعتها ، ثم لينقضوا بنیان العقيدة التي تقوم عليها ..

أين خلفاء محمد لا أقول ليخرجوا العالم من الظلام إلى النور ، بل ليخرجوا أمتهم من الظلام إلى النور ! إن الإلحاد يتحدى ، وله الحق فقد خلا الجو له ، والعلم الديني والتطبيق الديني غير مؤهلين للنصر بما يحملان من جرائم الضعف والعجز ...

إن المذاهب المادية تستغل أخطاء الفكر الديني في إحرار انتصارات كبيرة ، وتستهوئ الناس بما تقدم من حلول سريعة لمشكلاتهم على حين يتصف المتدينون بالتعقيد ، وضعف الإحساس بمعاناة الناس

والقرآن الكريم يصف البشرية المصابة بهذا التدين وصفا يجعلها أنزل رتبة من الذين لم يتدينوا أصلاً . ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنْزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اُخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (٩٢) ..

البغي ، وقسوة القلب ، وإيثار الشكل ، وتجاهل الأركان ، وغير ذلك من الأمراض النفسية هون من قيمة الدين وأثره ..

وعندما يخدم المتدينون الاستبداد السياسي ويجحدون قاعدة الشورى ، فإن الباب سوف يفتح للديمقراطية تسوى بين الطاهر والعاهر .

وعندما يعيشون في كنف ذوى الثراء ، ولا يبالون من أين يكسبون ، ولا فيم ينفقون ، ولا يتساءلون عن الحق المعلوم ، أخرج أم لم يخرج ، فإن الباب يفتح لماركسية تكفر بالله ، وبالإنسان معا ..

وعندما ينظرون ببلادة إلى الغريزة الجنسية ، ولا يسارعون إلى توفير مهادها الحلال ثم تتضافر جهودهم لحماية الأسرة ، فإن الحرام سيكون الجواب الحتم ! إن المتدينين من قديم ولا يزالون إلى الآن يتعثرون في قضايا خلقية ، واجتماعية ، وسياسية كثيرة ، بل إن تصوراتهم الثقافية موضع دهشة .. فيوجد من يؤلف ضد دوران الأرض حول الشمس ، ويؤيد موقف الكنيسة في العصور

الوسطى ، ويدعى مع ذلك أنه سلفى ! ويوجد من يأمر التلامذة بتخريق صور الأحياء في كتبهم ، لأن التصوير محرم ، ويوجد من يرى كشف الوجه نوعا من الزنى ، أو طريقا إليه ، ويوجد من يهاجم كون الأمة مصدر السلطة ، ويوجد من يتنكر بقوة لتكوين الأحزاب ، ولا يهمس بحرف ضد تقييد الحريات ، ويوجد من يحسب إقام الصلاة مغنيا عن تعلم الصناعات ، ويوجد من يعيش مع أعداء الإسلام في القرن الرابع ، يهاجمهم وينال منهم ، ولا يدري شيئا عن أعداء الإسلام في هذا القرن !

ألا يمهّد هذا كله لإلحاد مدمّر؟؟

بعد عشرين سنة من بدء الوحي حذّر الله الأمة الإسلامية أن تسرى إليها أمراض أهل الكتاب ، فيعتلّ إيمانهم ومسلكتهم كما اعتلّ إيمان اليهود والنصارى من قبل ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٩٣)

وأمراض التدين المنحرف تتشابه على مرّ العصور ، جرثومتها الأولى ، جفاف الشعور وضيق التفكير ، وقسوة القلب ، والانسلاخ العام من الفطرة ، والتعلق الشديد بالمراسم والصلف بمعرفة الحق ، والميل إلى سوء الظن ومعاملة المخطلين بجهروت

وتلك كلها آفات ينكرها الدين ، ولا يعد أصحابها على شيء مهما بلغت عباداتهم ...!

وقد ذكرنا كيف بدأ الانحراف في تاريخنا بانفصال الحكم عن العلم ، وحدوث فجوة أو جفوة بين الحكام والعلماء ... إلا أن انفصالا آخر وقع في ميدان العلم نفسه ، بين رجال الشريعة ورجال التربية ، انتهى بجعل الأخلاق علما نظريا أو أدبا ثانويا ! وجعل العبادات والمعاملات ، عادات ، موروثة ، وتقاليد متبعة ! وبذلك تقطعت الصلات بين الأمة والدولة ، ثم بين الأمة بعضها مع البعض الآخر ، وابتعد الجميع عن روح الإسلام

والأهم لا تقوم هذا التآكل في روابطها الأولى ، بله أن تؤدي رسالة عظيمة ...

وأعرض هنا لقضية واحدة : هل الدين قاس على المخطئين ، يبيت لهم العقاب ويتربص بهم الدوائر ، ويسعى للخلاص منهم ؟ أم له موقف أحنى وأرعى بغية تألفهم واستصلاحهم ؟

إن عيسى بن مريم لم يكن يشجع الزناة حين جاءوا له بامرأة عائرة كى يرجمها فقال : من لم يكن منكم بلا خطيئة فليتقدم لرحمها ...

إنه كان أولاً يستبشع سيرة نفر من علماء اليهود يشتبهون أن يروا المخطئ مطروحا للعقاب مفضوحا بين الناس ، إنهم—هذه الشهوة—ليسوا أفضل من الزانية وكان ثانيا يريد إعطاء العائر فرصة يستعيد فيها رشده ، ويصلح نفسه ، فمهمة الدين إذا رأى عاثرا أن يعينه على النهوض ، لا أن يتقدم للإجهاد عليه وعيسى فى هذا شبيه بمحمد—عليهم جميعا السلام—الذى كان يلقن المقر بالزنا كلمات الرجوع والنجاة من الموت .

ولسا نتاتا نلغى وظائف الشرطة والقضاة ، أو هون من شرائع الحدود والقصاص .. فالقانون الخلقي باق والقانون الحنائى باق ، وكلاهما له نطاقه الذى يعمل فيه ، وكلاهما ضرورة اجتماعية ...

إسا يريد أن ننفى عن الدين تهمة القسوة ، متذكرين مع ذلك قول الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحيانا على من يرحم

والناس معادن ، وللمعدن الواحد أحوال يصفو فيها ويكدر ، وسنة صاحب الرسالة الخالدة أن الإمام أن يخطيء فى العموم خير من أن يخطيء فى العقاب ...

ولينظر المسلم معى فى هذه الآثار ، جاء فى الصحيح عن أبى أمامة رضى الله عنه—وكان من أهل الصفة—قال : بينا أنا قاعد مع رسول الله ﷺ فى المسجد جاءه رجل فقال : يارسول الله ، إني أصبت حدا فأقمه علىّ ، فسكت عنه رسول الله ، ثم قال : يارسول الله إني أصبت حدا فأقمه علىّ ثلاث مرار ، وأقيمت الصلاة ، فلما انصرف تبعه الرجل ! قال أبو أمامة : فاتبعته أنظر ما يردّ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله إني أصبت حدا فأقمه علىّ فقال له : ألسنت حين حرحت من بيتك قد توضأت فأحسست الوضوء ؟ قال . بلى ! قال :

وشهدت الصلاة ؟ قال : نعم ! قال : إن الله قد غفر لك حدك ...
وروى عن أبي الدرداء : أنه أُتِيَ له بامرأة سُرقت - ليحقق معها ويعاقبها - فقال
لها أبو الدرداء : سرقت ؟ قولي : لا ... !
وهو تلقين غريب ! ولكنه يشير إلى طبيعة الدين في درء الحدود والتنفيس عن
الخاطئين

وقرأت أن مرتدا سيق إلى المأمون لينال عقوبته ، فرأى المأمون أن يحاوره ، قال
له : كلامك معي لا يضرك وقد ينفعك ، ومن الخير أن تزداد بصيرة في أمرك ،
فرمما بقيت على ما أنت عليه ، بعد هذا الحوار ، وربما تكشف لك ما يرجعك إلى
ما كنت فيه ، والحازم لا يضيع فرصة عرضت

وإليك نصّ الحوار كله نثبته لما فيه من فائدة :

لقد قال له المأمون : أحرنا عن الشيء الذي أوحشك عن ديننا بعد أنسك
واستباحاتك مما كنت عليه . فإن وجدت عدنا دواء دائك تعالجت به . وإن
أخطأك الشفاء ونبادك عن دائك الدواء كنت قد أعدرت ، ولم ترجع على نفسك
بلائمة . فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار
والثقة ، وتعلم أنك لم تقصير في احتهاك ، ولم تفرط في الدخول في باب الحزم
قال المرتد : أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فيكم . قال المأمون : لنا
اختلافان : أحدهما كالاختلاف في الآذان والإقامة ، وتكبير الجوائز والتشهد ،
وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات ، ووجوه الفتيا ، وهذا ليس
باختلاف ، إنما هو تخيير وسعة وتخفيف من المحنة . فمن أذن مثني وأقام مثني لم
يخطيء . ومن أذن مثني وأقام مثني لم يخطيء . ولا يتعايرون ولا يتعاتبون
بذلك . والاختلاف الآخر : كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل
الحديث مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الذي
أوحشك هذا حتى أنكرت له هذا الكتاب ، فقد ينبغي أن يكون اللفظ لجميع
التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تنزيهه ، ولا يكون بين .
جميع اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ، وينبغي لك ألا ترجع إلا
إلى لغة لا اختلاف في تأويلها من لفظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام
أنبيائه ورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل . ولكننا لم نر شيئا من أمر الدين والدنيا

وقع على الكفاية . ولو كان الأمر كذلك سقطت المحنة والبلوى ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله أمر الدنيا . فقال المرتد : أنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وأن المسيح عبد الله ، وأنت أمير المؤمنين حقاً .

لو كانت للمسلمين خلافة راستدة تتعاون في ظلها الكفايات العلمية والتشريعية والتربوية ، ما وجد الإلحاد الدينى أو السياسى أو الاقتصادى مسرباً يذلف منه إلينا ولا إلى غيرنا ..

لكس الأمر اغتصبه من لا يستحقه فوقعت فتن تدع الحليم حيران ، لما أفضت الخلافة إلى نبي العباس ، وملك الأمر عبد الله السَّفَّاح جاءه السيّد الحميرى ينشد هذه الأبيات .

دونكموها يا نبي هاشم	فحدّثوا ميراثها الطامسا
دونكموها فالبسوا تاجها	لا تَعْدَمُوا منكم لها لاسا
خلافة الله وسلطانـه	ومنبر كان لكم دارسا
قد ساسها قلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا ياسا
لو حيّر المنبر فرسانه	ما احتار إلا مكم فارسا
والملك لو سوور فى ساسة	ما اختار إلا مكم سائسا
لم يُبق عبد الله بالسّام من	آل أبى العاص امرءا عاطسا
فلست من أن تملكوها إلى	مهبط عيسى ، منكم آيسا .

قال الرواة . فأمر الخليفة له بمائة ألف درهم ، وقال له : سل حوائحك ! فقال الحميرى ترصى عن سليمان بن حبيب وتولية الأهواز ! فأمر الخليفة بحمل سليمان أميراً على الأهواز ..

هكذا - باسم الإسلام - نهب مال الأمة ، وبيلت ماصها الكبرى ، وتمى الشاعر أن تطل الخلافة فى عائلة العباس إلى برول عيسى بن مريم .

وقد حيب الله الأمل ! ورالت الخلافة المذكورة بعدما عانى الإسلام منها البلاء الشديد .

والمهم أن بعض المتحدثين فى الإسلام لا يدري شيئاً عن اختيار الخليفة ،

ومراقبته ، ولاعن أسلوب الشورى ومن يستشارون ولاعن المال العام وكيف
يعق .. وكل ما يعرفه أن يهاجم الديمقراطية مثلا باسم الإسلام المظلوم ...

إن شباب الجيل المعاصر يعاني من فتنة مزدوجة ، فالخضارة الحديثة تعرض عليه
مذاهب براقة ، تخفى السم في الدسم ! والمحسوبون على الإسلام يعرضون عليه
أفكارا ممجوجة ، ويطلبون منه أن يستسلم إليها ، لأنها من الله ورسوله ، وهم
كذبة !

الروّاد الجدد يقولون له : يريد حكومة تخضع للأمة إن أحسنت استبقتها ، وإن
أساءت استبعدتها ولا كرامة ، لاند للحكومة أن تستشيرنا وتخضع لما يريد .

والمحدثون الإسلاميون يقولون له : التورى لا تلم حاكما ، وله أن يمضى
وفق ما يرى غير آبه لتوجيه المستشارين !

إن الكلام الأول أئسه بما كان عليه الأمر أيام الخلافة الراشدة ! أما كلام
الإسلاميين فهو امتداد لمنطق الخلافة غير الراشدة التى ابتلى المسلمون بها دهرا ...
وعندما ينهزم المطلق الإسلامى المزعوم ، ويبدأ حكم الشعب بتغيير مقررات
وتتقضى مسلمات !

والسبب ؟؟ عباء متحدثينا وعرضهم باسم الإسلام كلاما يأباه الإسلام .

وقل مثل هذا فى قضايا المال ، والمرأة ، والعلم ، والحرب ، والحرية ... الخ

إذا كان أولو الهى يتكلمون من المظالم التى تقع باسم الحرية ، والسرقات
التي تقع باسم الاشتراكية فكلم نشكو نحن من الجهالات والسخافات التى تقع
باسم الدين !!

والسنة السوية مهرب رحب لمريدى العبت ، وناشرى الفوضى .. !

ههناك أحاديث موضوعة مرت ، وأحاديث صعيقة قوية ، وأحاديث
صحيحة حرفت عن موضعها ، وسيقت فى غير محلها .. !

وإذا كما أحيانا نسمع شكوى من الإسراف فى استعمال الدواء ، وقدرة
الجمهور على شرائه وسوء التصرف فيه ، فإن الشكوى نفسها يمكن توكيدها
بالنسبة إلى أحاديث كثيرة تقع بين أصابع الدهماء فيحوضون فيها ببلاهة ،

ويسيطون أكثر مما يحسنون !

ولم الدهماء وحدهم ؟

لقد سمعت عالما يخطب فيورد في ذكرى المعراج حديث « دنا الجبار فتدلى » .. !!

فبادرت أقول له : إن الذى نزل بالوحي هو جبريل لا غير ، أسمعت ؟ قال إننى نقلت رواية البخارى ! قلت له : القرآن قاطع فيما أذكره لك : ﴿ تَزَلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾^(٩٤) ، والذى رآه محمد عليه الصلاة والسلام هو جبريل كما جاء فى سورة أخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مَطَّاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ، وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَحْنُونٍ ، وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾^(٩٥) !!

قال : ورواية البخارى ؟ قلت : صححها تلميذه مسلم بأدب العلماء ، فقال إن الحديث رواه شريك عن أنس بن مالك فزاد ونقص وقدم وأخر أى إن السياق غير مضبوط ، ولا يعمل به !!

وقد ظهر ناس يتسمون أهل الحديث لا يعلمون عن القرآن شيئا ، وبضاعتهم فى فقه السنه مزجاة ، فيهم شبه من فكر الظاهرية ، ومزاج الخوارج ، وفيهم حمود يغطونه بدعوى الاتباع ، وفيهم جراءة على أئمة الفقه الكبار ، وفيهم اعتداد بأنفسهم وكأنهم المتكلمون باسم الله ورسوله ! وفيهم سوء ظن بالآخرين واشتباء للليل مهمم والوقية فيهم ...

وقد كثر هؤلاء فى هذه الأيام العجاف ، ولولا علمى بأن الجاهل عدو نفسه لقلت : إن الاستعمار هو الذى يحركهم ، وينطقهم ، وينشئ لهم جماعات فى أقطار متباعدة ، لأهم مهرة فى تقطيع وحدة الأمة !!

قدما كان العمل بالنصوص صبة المجتمع كله ، وكانت نسبة الجامعين للقرآن الكريم لا تعدو ١٠٪ فى عصر الصحابة نفسه ، أما العارفون للأحاديث فنسبتهم أقل . وما يحتاج المسلم فى حياته إلا إلى نضع عشرات من أحاديث الآحاد .. إن ما تواتر من العقائد والعبادات والأخلاق هو قوام الإسلام وحياة الأمة ،

(٩٥) سورة التكوين ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

(٩٤) سورة الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤

ومازاد يحتاج إليه متخصصون في أعمال أخرى ، ولا يجوز أن يزاحم الأركان بله أن يطغى عليها ..

وقد لاحظت - وأنا في الجزائر - أن الفرض الأول في النشاط العام هو إعادة اللغة العربية إلى المكانة التي أرلها عنها الاستعمار الفرنسي ، فقد طل - عليه اللعنة - قرنا وثلاث قرن يحمل على اللغة العربية حتى اصمحت وكادت تزول من لغة التخاطب في الشارع الجزائري ..

وكان لا بد من جهاد رراعى تنجو به الأمة من أى حصار اقتصادى يجعلها تركع من أحل الرغيف ! ..

وكان لا بد من جهاد إدارى يمع قتل مصالح الجماهير في أدراج المكاتب ، أو بين أصابع الملتأئين من الموظفين الكسالى ..

وكان لا بد من جهاد اجتماعى يقتلع العوائد الفرنسية ، ويبنى العلاقات بين الحسين على العفاف .

وكان وكان ..

في زحام هذه الواجبات تنظر إلى شباب يتسبب إلى السنة النووية يقاتل لعابات أخرى ! يقول : الأعراس فيها غناء وموسيقى ، والعرس الإسلامى يقوم على تلاوة القرآن .. !!

قلت . من أفتى بهذا ؟

ولما كان مذهب مالك شائعا في البلاد ، والمصلون يسدلون أيديهم وهم وقوف ، فقد تسوا حربا على السدل ، وقالوا : يجب القبض .

قلت : من أفتى بهذا ؟

وحدث في مدينتين بيهما مئات الأميال أن سُئل عن حديث أن موسى فقاً عين عزرائيل لما جاء لقبص روحه ! لقد استعرت هذا التوافق ، وقلت : أهو توارد حواطر أم تميزد محطط ؟؟

وعجبت أن يتفهقر الجهاد العلمى والإدارى والاجتماعى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلى شبه الشعور وأن يحل محله لفظ في أحكام ديبية ثانوية !

وهزت الخائضين في هذا اللغو .. وقلت في إبحار : حبوا أعراسكم المخون
والتكشف واسمعوا غناء أو موسيقى إن شئتم .

أما وضع الديدن في الصلاة فهيمّة تستحب فقط ، ومن تركها عامداً أو ناسيا
فلا سهو- عليه .

وأما الحديث فما حاحتكم إليه ؟ لا يفيد عقيدة ولا يكلف عمل ! وما
يسألكم الله عنه يوم القيامة ! وإلى أرفص ربط مستقبل الإسلام وأمته تارة بحديث
سقوط الدناب في الإناء وتارة بحديث حلع عين ملك الموت

هذه أحاديث تحث وفق المقررات الأصولية في دلالتى السد والمتن ، فقد
يصح الحديث سنداً ويرفص متناً ، لعلّة قاذحة ، وقد رفّص الأئمة الأربعة حديث
رصاص الكبار مع صحته ، فدعوا هذه القصايا والتفتوا لديكم .. ' إن العاية من
أنواع الطاعات تركية النفس ، ورفع مستواها المادى والأدنى رؤية المحدث الإلهى ،
وقيام الله سبحانه وتعالى على خلقه ! والإسلام هو البهجة المصيّء القدر المقرر لهذه
الحقائق ، ويؤسفى أن بعض الناس يزيعون عنه من حيث لا يشعرون !! لقد
سألنى طالب حامعى عن قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ
دُوَّ الْحُلِيِّ وَالْإِكْرَامِ ﴾^(٩٦) فقلت له : المعنى واضح ، العالم كله سوف يتلاشى ،
ويتهى وحدوده فأمانى الخلود سراب حادع ، وللبشر بعد هذا الهلاك العام صحوة
بواحهون فيها ما قدموا لأنفسهم عندما كانوا يختبرون على ظهر الأرض ، على نحو
ما ، قال الشاعر :

لأدار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التى كان قبل الموت ينيها .^١
واستطردت أقول للطالب : وجه الله هو الباقي ، وهو ما يسعى أن نقصده بأعمالنا
دون تعويل على غرض آخر من مال ، أو حاه ، أو طلب ولاء ، أو انتعاء مكانة ،
كما قال تبارك اسمه : ﴿ إِنَّمَا تُطْعَمُكُمُ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا
شُكُوراً ﴾^(٩٧) وهو جئت الطالب يقول لى : ما عن هذا أسأل ! أنا أسأل عن
تفسير كلمة « الوجه » فنطرت للطالب بغضب بلع حدّ المقت ، ولكنى كظمت
غيظى ، وأحبته ببرود : سؤال لا معنى له ، إن لعات البشّر كلها أعجز وأقلّ من

(٩٦) سورة الرحمن ٢٦ ، ٢٧

(٩٧) سورة الإنسان ٩ .

أن تصف الجلال الإلهي ونحن مكلفون أن نؤمن بالله وأسمائه الحسنی ، دون تقعر
فيما يستحيل إدراكه ، إن الله ليس كمثله شيء ، إن الدبابة التي تطن حولي لا
تدري ولا تستطيع أن تدري شيئا عما يدور في رأسي ، وما أحطه بقلمی ،
كذلك أنا وغيری بالنسبة إلى الدات العليا ، بل نحن أدنى وأضال ... يا بني
لاتؤدوا الإسلام باسم الإسلام ! مرؤا على هذه الآيات وأشباهاها كما يمر العلماء
بالضوء ، ينتفعون به ولا يعرفون كنهه مهما حاولوا ، إن الانشغال بهذه البحوث
لون من البطالة المقنعة ، واستحياء المعارك القديمة هو تجديد لمعارك الهزيمة ! وشغل
للمسلمين بما يضرهم ويفيد عدوهم ! إن الايات المحكمات هن أم الكتاب ، فما
الذى يصرفكم عن فقها والعمل بها ، والدخول في متاهات لا معنى لها ؟ أرجو
ألا أسمع هذا السؤال أبدا !

إنهم يتعصبون ضدنا .. فهل نترأخى !!؟

تداعت الخواطر في نفسى ، وأنا أنظر إلى تمثال الامپراطور « قسطنطين » في مدينة « قسنطينة » ، وقلت : لقد بدأت مراحل تعليمى في مدينة « الإسكندرية » أى في بلد يحمل اسم الإسكندر اليونانى ، وهأنذا أعمل في بلد يحمل اسم القيصر الرومانى .

وقد كان في الإمكان أن يظل الوجود الأوربى في بلادنا دهرًا لولا أن الإسلام طهر القارتين القديمتين آسيا وإفريقيا من الجنس الزاحف ، وردّه من حيث جاء ...

ومع ذلك فقد بقيت الأسماء القديمة لها دلالتها ولها إيحاءها !

إننا لم نفكر في تغييرها ولكن الأوربيين لم يحاولوا تغيير أنفسهم والتوبة من مظالمهم ، وكأنهم يرون أن الأرض كلها كالأرباح لهم ، وأن أهلها كانوا عبيد الأجداد فليبقوا عبيد الأحفاد .. !!

إن هذا الإصرار ازداد حدة بعد أن اعتنق الروم النصرانية ، وبدل أن يغيروا طباعهم مع التعاليم الجديدة ، لبسوا جلد الحمل الوديع على حقيقة ذئب مفترس ، وهيهات أن تنطلى الخدعة ، فإن الأنبياء الحادة والعواء الرهيب فضحا طبيعة الوحش المختفى ! وأيقن الناس أن الروم لم يتصرفوا وإنما تروّمت النصرانية !

وأن الأوربيين إجمالًا يريدون الاستمرار في سياسة الاغتصاب ، والاجتياح ، وأنهم ما آمنوا قط بحكاية « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » بل على العكس لقد انطلقوا يلطمون الوجوه عن يمين ويسار ، فمن غضب لنفسه قطعوا عنقه ! باسم الله ! ...

وتمضى المغالطة إلى آخر الشوط ، فالرومان يقاتلون المسلمين في مؤتة ، ويستنفرونهم إلى تبوك ، أى يقاتلون العرب في أرضهم وفوق ترابهم ، ثم

يقولون : الإسلام دين عَف ، ونَحس إنما ندافع عن حقنا !

أى حق ؟ وكان الفرنسيون من ثلاثين سنة يقتلون الحرائير في مدنها وقراها ، فإذا زجرهم ناصح قالوا له : صه ! هذه شئوسا الداحلية ! لماذا تدخل أنفك فيما لا يعبك ؟ الجزائر جزء من التراب الفرنسي !! ماذا نقول ؟ إن الاستعمار لن يدع صفاقة ولا وقاحته إلى آخر الدهر حتى يرغمه نحن على تركها ، بالمطلق الذى لا يفهم غيره ... !! عجيب أن ينسى المظلوم ، وأن يذكر الظالم ! عجيب أن يتشاغل صاحب الحق بلا شئ ، وأن يمرع صاحب الناطل لسلبه كل شئ ! إسى أنظر إلى الأحزاب المخاصمة للإسلام من وثنيين وكتائين فأجد عداوتها تريد ولا تقص ، وأحد الخطط المرسومة لمحوه ومحو أمته تفض بدهاء وحت ! وفى الوقت الذى نتجافى فيه ونتشاكس ، يتساند هؤلاء صدينا ويتصالحون على تمويتنا .. ! اليهود الديس وتوا على فلسطين ، يعلنون بعضاءهم لمحمد وكتابه ، ورفضهم لنبوته وأمته ! ويرون أهم أولى بالأرض والسماء منه ومن أتاعه ! والعاية من إقامة « إسرائيل » محو عقيدة وحس ، وإتبات عقيدة أخرى وحس آخر ، الغاية محو تاريخ طل حمسة عثر قربا ، ووصل تاريخ حديد نقبائل العبرانيين الأولى بعد رمى الإسلام وأمته فى البحر .. وفى سبيل هذه الغاية الرهية يتد اله لبيون أزر المعتدين ، ويمدوهم بسيل من المال لا يقطع ، وأنواع من التأييد السياسى والعسكرى لا تنهى ! إن اليد اليهودية لا تصفق وحدها ، وإنما تعاونها اليد الصليبية ، ومفروض أن تلتقى اليدا على عُنق الإسلام لتحصره ، وتورده الختوف ! تُرى أتسكت الشيوعية الكارهة للإسلام وتقف بعيدا ؟ كلا ، إنها تشارك فى الاعتراف بإسرائيل ، وترى الفرصة سانحة تضم أرضاً إسلامية أخرى إلى أرض الاتحاد السوفيتى التى تكوّن أغلبها من دار الإسلام المستباحة ... وهكذا أقبلت أفواح الذئاب من كل ناحية لتعيث فسادا فى قطيع لا راعى له .. إن الإسلام يمرّ بأسوأ محمة عرضت له خلال تاريخه كله ، وليس أعجب من تجمّع أعدائه عليه إلا ذهول أتباعه ، واحتناسهم فى مآرهم ، أو انشغالهم بقصايا لا تسم ولا تعنى من حوع .. إسى أفهم حقد الملاحدة على الإسلام ، لأن الإسلام يتسلع الناس برهم ، ويجعل الحياة والممات له ، وأفهم أن يحقد عباد الأصنام والأقار على الإسلام ، لأن أولئك لا تفكير لهم ولا ضمير ... أما هذه الضعائ المتوارثة بين أهل الكتاب على الإسلام وأمته ، فداء عياء وظاهر أن بغى الكتائين

أنكى من جهل الأميين ، وأن أهواء المتعلمين - إذا فسدوا - أغلظ وأشنع من
مكايد السدج ... حين أرمق المجازر التى تحتاج أباءنا ، والحرائق التى تلتهم
دورهم ، وأرى الموارنة والصهبانية يتسابقون فى تكثير ضحاياها ، وكأما يحققون
أمايهم فى الدنيا ، أقول إن هؤلاء وأولئك نسوا المثل القائل : أبغض بغضك هونا
ما عسى أن يكون حبيبك يوما ! إهم يعتقدون أن هزيمة المسلمين اليوم هى
القاضية ، وأنه لن يبقى مهم من يؤسف على ما حدث له أو لآبائه ... !!
لابأس ، يجب أن ندفع ضريبة التخلف والفرقة والضعف ، وإن فذح الثمن !
والغيب لله ، فما ندرى أكون الغد قصاصا لنا ، أم امتدادا لمحتنا ؟؟ على أنه من
الخسة أن تترك المآسى النارية بنا دون كبير ودون تذكير ! ، وجمع هذه المآسى
خلال قرون الصعف يحتاج إلى كتب مطوّله ، فهل نؤدى واجبنا ؟ أمس القريب
كنت فى مدينة « حنشلة » الواقعة فى أحضان جبال « الأواس » بالجزائر قال لى
صديق : ألا تزور قبور الشهداء ؟ قلت : هذا حق ، هيا بنا ، وفى الطريق أثار
إلى خندق مردوم ثم همس : كان العمال يحفرون هنا فوحدا بقايا آدمية ! وتتابع
الحفر والتنقيب ، فإذا هياكل عظمية لألف شهيد احتوتهم هذه المقبرة الجماعية ،
ومع عظام الموتى وحدث السلاسل التى تربطهم والقيود الحديدية التى كانت فى
معاصمهم !! إن القتلة حشدوهم هنا ثم حصدوهم بالمدافع الرشاشة ثم أهالوا
عليهم التراب ليذهبوا مع الأوس الدار ! وهاجى الغيظ وأنا أنظر إلى المكان
كله ، وأرى أنقاض الشباب الغضّ ، والرحولات الباسلة ، ومصارع الجاه
الشريفة ، والقلوب المؤمنة بيد الأوغاد من صليبي العصر الحديث ! وضحكت
بخنون ، وأنا أقول : لقد تركوا السلاسل والقيود لأهم صنعوا الكثير الكثير منها
للأحرار والموحدين ! ومددت الطرف فإذا صديقى يقول : إن الحكومة نقلت
الرفات إلى هذه القبور التى ترى ! ونسّ متحفا يضم الوثائق لمقتل حزة واحد من
ألف ألف وخمسمائة ألف شهيد قدمتهم الجزائر لتحرير أرضها من فرنسا
الكنيسة البكر كما يسموها فى أوروبا .. ولتستعيد المساحد التى حوّلها الفرنسيون
إلى كنائس حتى تنطلق منها أصوات التكبير والتوحيد كما كانت منذ شيدت ...
ونظرت إلى القبور الجديدة ، فخيّل إليّ أنها سطور مُسّقة ممتدة ، لأبيات قصيدة
حزينة نوحى بالأسى والبكاء . غير أن إيماني عاودنى على عجل ، إن الشهداء
أحياء ، وأرواحهم ترد أهار الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ! ولو

عرض عليهم أن يعودوا إلى دنيانا هذه لرفضوا ، ولو كانوا على تراها ملوكا !!
لامكان للحزن ! يجب أن أتخلد وأن أتعلّم ، وأن يعرف قومي فداحة ما يفعلون
ثمنا لتفريطهم وضعفهم ، إن ما وقع في المغرب العربي صورة لما يقع من أيام في
الشرق الأوسط ، وحنوب آسيا حتى الفلبين ..

إن العالم الإسلامي يُضرب ببأس ، والحلادون طامعون في إخماد أنفاسه ،
ولذلك لا تدركهم رحمة .. وتذكرت ما نشرته جريدة الراية القطرية عن بعض
أسرار « صبرا وشاتيلا » أن أحد رجال الكتائب أدرك شابا فلسطينيا يافعا ، وكان
ساقطا على الأرض في فوضى المذبحة ، فأخذ يتوالت فوق جثثانه محذاه به الثقيلين
حتى أزهق روحه ! لم هذا الحقد كله ؟ لم هذه الوحشية كلها ؟ يبدو أن الجبان
إذا أمس على حياته فعل كل شيء ...

قال لي صاحبي . أمحزون أنت لما يصيب المسلمين من كوارث في أرجاء
العالم ؟ قلت : ولم لا ؟ إن الطبعة التي تصيب أحدهم في الفلبين أتأوّه لها في
القاهرة ! فكيف إذا اشتعلت النار في دار الجار ؟

قال : أتعلم ما يفلسف به رجال الدين هذه المآسي ؟ يقولون : إننا نرد الصاع
صاعين ، لما فعله السيف الإسلامي قديما بمعارضيه !

قلت : كذبوا والله لقد كان الإسلام في عنفوان قوته رحيما ، وكما قال
« غوستاف نوبون » : إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب !

ولو شاء لأباد طوائف كبيرة وصغيرة ، وحاشاه أن يفعل ، فما تلك خطبته ولا
تلك سيرته ! ولو فعل لسكت التاريخ ، مستكينا كما سكت لإنادة المسلمين في
الأندلس ، ولإبادتهم في الشطر الشرقي للاتحاد السوفيتي ، حيث تذوب الأمة
الإسلامية في آسيا الشيوعية !

إن المسلمين كانوا وما زالوا أرق أهل الأرض ، ولا يزالون كذلك ما بقوا في
كل صلاة يرددون هذه العبارة النيلة : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين !
يا صاح ، إن رجال الدين هؤلاء يسترون فشلهم في ترشيد الحضارة الحديثة
بإعانة الاستعمار العالمي على ضرب الإسلام .

إن السيف الإسلامي المزعوم اختفى من عدة قرون ! وانفرد « أهل الكتاب »

بالمدينة الحديثة تحاورهم ويحاورونها فماذا حدث ؟ أبعد الدين عن ميدان الحكم ، ثم أبعد عن ميدان المال ، ثم أبعد عن الآداب والفنون ، تم أبعد عن العلوم الإنسانية ، والعلاقات الجنسية ، والتقاليد الاجتماعية !

إنه - بفضل ما لدى القوم - أبعد عن الحياة كلها ولم يبق له وجود إلا في أيام العطلة ، أو في المناسبات العامة .

وليت بعد هذا الإحباط استكان ، لقد تقدم في ابتسامة صفراء إلى الحكومات الاستعمارية يعرض عليها مساعداته الحميدة ! فكان وراء حملات القتل والتدويج التي تتعرض لها شعوب شتى من بينها ، أو في مقدمتها الشعوب الإسلامية ! إننا ننصح الكهنة الذين يمالئون الصهيونية ، ويؤيدون المظالم أن يتراجعوا قل أن يطول بدمهم إنهم يهدمون ولا يبسون ، وبدل أن يجتهدوا في إبقاء دينهم بأوروبا ومع الحضارة الحديثة من محو آخر أثر له حولوا جهدهم كله إلى حرب الإسلام ، وتضليل أهله ... ! جريا مع المثل الغربي « على وعلى أعدائي » بيد أن العرب - قبل كل إنسان - مسئولون عما يقع الآن للإسلام من أحزان ! إن تفرقهم الشائت أيام الحملة الصليبية الأولى هو الذي فتح الطريق إلى القدس وحل الحث أكواما في البلد المحروب ، وهم اليوم يكررون الخطأ القديم ، بل ضموا إلى تقطيع الصفوف توهين العقيدة ، وتهوين الأخلاق ، وعريضة الشهوات ...

ومع أنى عربي إلا أنى أشعر بالخجل للمواقف التي وقفها العرب من إخوانهم وسط آسيا وشرقها وجنوبها ... وبدأت آخر الأمر في مشكلة أفغانستان ، إن الدول العربية الضالعة مع روسيا تنكرت لها بل تجاهلتها في وضاعة عجيبة ، والدول الباقية قدمت مساعدات تافهة ، لا تبلغ أندا مستوى المعركة بين الكفر والإيمان . إن العرب أنانيون لا يهتمون إلا بأنفسهم وقضاياهم ، وتأخيرهم الأخوة الإسلامية عن الجنسية العربية سيجر عليهم العار والار في الدنيا والآخرة . ألقى الأستاذ أحمد هبجت نورا على المعركة الأفغانية في الركن العامر الذي يملؤه في صحيفة الأهرام فقال : « لقد تحدث المجاهد الأفغاني عبد الرسول سيف رئيس الاتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان عن أهمية المعركة التي تدور الآن بين المجاهدين الأفغان وقوات الحكومة العميلة التي تسدها الدبابات الروسية . قال إننا أمام معركة خطيرة تعنى خسارتها خسارة الإسلام في أفغانستان وفي باكستان نفسها .

قال بالنص : لو انتهى هذا الجهاد « لا سمح الله » بمشعل المجاهدين فإن باكستان تموت خلال أسبوع . إن الدب الروسى سوف يضغط من الغرب ، والفيل الهندى سوف يضغط من الشرق ، وسوف تختفى باكستان ، شرح المجاهد حقيقة أبعاد المعركة فقال : إن أمريكا لا تريد بقاء روسيا فى أفغانستان ، ولكنها كذلك لاتحتمل قيام حكم إسلامى فى أفغانستان ، وعندما اتضح أن المعركة الدائرة أخذت تسفر عن قيام حكم إسلامى ، بدأوا جميعا يتداركون الوضع ، وبدأ التنسيق فى البحث عن بديل آخر غير مسلم وبدأت كثافة سيناريو جديد ، وبرر اسم « ظاهر شاه » والمطلوب فى السيناريو الجديد إجهاض الثورة الإسلامية أساسا ، ومن الأمور التى تثير الأسف أن المسلمين لا يدركون خطورة المعركة ولا يعرفون أبعادها ، وبالتالي فإنهم لا يتفاعلون معها كما يجب .

سئل عبد الرسول سياف .. هل عياب القضية الأفغانية إعلاميا هو السر فى عدم التفاعل معها فقال أنا لا ألقى الذنب على غيبة الإعلام الأفغانى عن الساحة العربية والإسلامية ولكنى ألقيه على غيبة الإعلام العربى الإسلامى عن ساحات الجهاد ، وتساءل المجاهد لماذا لا يوجد صحفى مسلم يأتى إلينا ويعرض علينا أن نوصله إلى جبهات القتال ليشهد فجر الإسلام من جديد .

إن غزوات المسلمين الأوائل تعيد نفسها فى أفغانستان وليس هناك مسلم واحد يسجل هذه الأحداث ، إن الصحفى فى بلادنا الإسلامية يرحل بكاميراته آلاف الأميال ليتابع لاعب كرة يسجل هدفا .. ألا يستطيع هؤلاء الصحفيون تسجيل تدمير عشر دبابات بأيدي مجاهد مؤمن يقف بين رصاص كالمطر .. أذكر أننى قلت للصحفيين بالرياض كيف تعتبرون أنفسكم صحفيين مسلمين بينما أنتم عالة على أعدائنا فى أخذ أخبار أمتكم الإسلامية ، قال لى بعضهم .. والله أنتم ما تخبروننا عن أوضاعكم وأحوالكم وهذا الكلام يشبه من يبعث خطابا إلى مريض فى المستشفى يسأله لماذا لا يخبره عن أحواله . أيهما يذهب إلى الآخر السليم يعود المريض أو المريض هو الذى ينغى عليه أن ينهض من فراشه ويذهب إلى السليم ويخبره عن أحواله .

لماذا لا تأتون إلينا إذا لم تستطيعوا الوقوف معنا فى خنادق القتال فلا أقل من تسجيل موقفنا نحن فى الخنادق .. أليس عارا أن نقرأ فى صحفنا الإسلامية خبرا

عن إسقاط طائرة بأيدى المجاهدين وتحت الخبر نكتب وكالة فرانس برس أو رويتر « ؟ !!

أين اليقظة العربية ؟ أين الاكتراث العربى ؟ إن الأحرار الإسلامية مهزومة فى هذه القضية الكبيرة ! وانهمزاتها ليس جديدا فقد سبقته خيانات جسيمة فى أحوال مشابهة . والواقع أن دحرجة الإسلام سياسيا وثقافيا . تمخضت عن ارتداد ملحوظ فى إعلان بعض الأحزاب عن « علمانيتها » وفى رفض حكومات شتى للانتماء الإسلامى .. ولولا الوجع من علامات الحياة التى ينتفض بها الكيان الإسلامى بين الحين والحين لأعلنت بعض الحكومات العربية انسلاخها عن الإسلام جملة وتفصيلا ..

ماذا كسبوا من هذا النفاق ؟ كان الحاج محمد أمين الحسيبى مفتى فلسطين الأكبر يقود مقاومة إسلامية بأسلة ضد اليهود والإنكليز ، نعم كان الوجه الإسلامى سافرا ضد الوجه اليهودى المكشوف المتبحر ! كانت صيحة الله أكبر تقود المقاومة ، وتنشق بها حناجر المجاهدين الذين يشتدون حير الدنيا والآخرة .. إن هذه الصيحة هى التى لم يعرف غيرها ثوار الجزائر فى مقاتلتهم للاحتلال الفرنسى الحقود ، وقد فدحت التضحيات ولكنها حققت النصر ، ودحر الله الصليبية الجديدة ، ولم يكن لجند الإسلام سلاح يوم بدأت المعركة ! إلا ما يأخذونه من أيدى أعدائهم .. ثم رأى « عرب الشرق الأوسط » - وبئسما رأوا - أن يدعوا التكبير ، وأن ينحازوا بعيدا عن الإسلام ، وأعلنت جبهة التحرير أنها سوف تقيم يوم تنتصر دولة علمانية ! وتتابع الخسائر ! وتتابع الانسحابات ! وأطبقت على الجماهير المسكينة حيرة بالغة .

الإسلام .. وفلسطين

لقد شعرت بقلق حقيقى على مستقبل فلسطين ! قد تقول : هل جد حديد ؟ وأجيب : كلا وليس تم أسوأ مما وقع ! مبعث قلقى أى رأيت الشعور الدينى عند اليهود يقوى ، وعند قومى يخف ، وأن الست يزداد قداسة على حين تنهاوى شعائر الإسلام فى أقطار شتى ، وأن القوم يتحدثون عن حدودهم التوراتية ونحن لا نعرف آفاقنا القرآنية ! وأن اليهودى يلبس قلنسوة صلاته فى أى عاصمة ،

ويعمى فى شموخ إلى كيسة بينا يتخفف أكثرنا من عبء الصلاة المكتوبة ، وأن التراث عندهم أصالة وعندنا رجعية ! إسرائيل عندهم دين ، وفلسطين عندنا عروبة ! ومعركة تدور على هذه الأسس تثير الفزع فى ضمير المسلم ... إن أمريكا تؤيد اليهود لأسباب دينية ، وقد كان لورد بالفور نصرانيا متحمسا ، ومؤمنا بتعاليم العهد القديم عندما أعطى اليهود حق احتلال فلسطين ... والدول العظمى التى قالت : حلقت إسرائيل لتبقى—وبينهاروسيا — إنما تتحرك بضغائن ضد العروبة والإسلام ...

وقد تصدر هيئة الأمم فى هذه الأيام قرارا حديدا بتأييد حق العرب فى فلسطين ، أو تعبير أصرح حق إقامة دولة لهم على جزء من أرضها .. وسيكون القرار كعشرات غيره حرا على ورق ، ولن يعود الحق إلى نصابه إلا فى حالة واحدة ، أن يعرف العرب الطبيعة الدينية لقضيتهم ومعركتهم ومصيرهم فيردوا على العدوان اليهودى بدفاع إسلامى ، إن راية « العلمانية » لن تكسب خيرا فهل نرحع إلى الإسلام عقيدة وجهادا ، لا سياسة وشعارا ؟ لعل أول ما كسبه العرب من تحايل الإسلام هذا التفرق الشائى الذى سر أعداءهم وأرحص مكائهم العالمية . إن الإسلام الضمان الوحيد للوجود العربى فى هذه الدنيا ، قبل أن يضمن لهم فى الآخرة جنة عرضها السموات والأرض .. والعرب عندما يزهدون فى الإسلام فسوف يعودون قبائل متحاقدة لا تزن عند الله ولا عند الناس حناح بعوضة . ! ليس أمام العرب إلا توبة سياسية واجتماعية ، يعرفون بها رسالتهم ، ويبصرون غايتهم ، ويسترجعون محدهم ويكسبون عدوهم ... إن العرب يبلغون ١٥٪ من مجموع الأمة الإسلامية ، إلا أنهم كما قلت فى بعض كتبى « دماغ الإسلام وقلبه » إذ الإسلام دين عربى الثقافة والقيادة .

ونحاح الاستعمار فى فرض الارتداد عليهم هزيمة بعيدة الآمد رهية الآثار ! ونحن موقفون بأن جماهير العرب أوفياء لدينهم حتى الموت ، وأن المراد فرض الإلحاد عليهم بالسلاح ! وتمكين سلطات مختصة من خذلان الإسلام فى كل ميدان ، وجعل العمل له تهمة ! وجعل العمل ضده باب القبول والترقى !! والجهل الآن قائم على تجريد العروبة من الإسلام ، وتجريد كل قومية أخرى من

الانتماء الإسلامي ، ومادري أولئك الغادرون أنهم يحفرون للعرب – بهذا المسلك – مقبرة تواريتهم إلى آخر الدهر ...

وقد لاحظت في ركن قصي من النشاط الأدبي أن الطلاب لا يحفظون قصائد تتحدث عن أمجاد الإسلام ، ولا عن أيام الله في تاريخ العرب ..

حتى لو كلفوا بحفظ قصيدة للمتنبى تصف حروب سيف الدولة مع الروم فإن واضعي المقرر يتحاشون ذكر الآيات التي تشير إلى الإسلام ..
ففي قصيدة أبي الطيب .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
يحفز عن عمد قول أبي الطيب لسيف الدولة :

ولست مليكا هارما لنظيره ولكنه الإسلام للشرك هازم !
وتنفيدا لهذه السياسة طويت قصائد جياشة بالصدق واليقين لشوقي وحافظ ومحرم وغيرهم ، وقد رأيت أن أستنفذ من أصابع الضياع قصيدة الشاعر محمود غنيم التي يناشد فيها العرب أن يصحوا ، ويستثير في صمائرهم نجدة الإسلام – قال نضر الله وجهه في قصيدته : « وقفة على طلل » .

مالي وللنجم يرعاني وأرعاه	أُمسى كِلانا يعاف الغمض جفناه
إلى فيك ياليل آهات أرددها	أَوَاهُ لو أجدت الحزون أَوَاهُ
لا تحسبني مُحِبًّا يشتكى وصًا	أَهْوَنُ بما في سبيل الحب أَلْفَاهُ
إني تذكرت - والدكري مؤرقة	مخدا تليدا بأيدينا أصغناه
أنتى اتجهت إلى الإسلام في بلد	نَحْدُهُ كالطير مقصوصا حناحه
وينح العروبة كان الكون مسرحها	فأصْبَحَتْ تتواري في زواياها
كم صرَفنا يد كتنا نُصرَفُها	وَبَاتَ يَمْلِكُنا شَغْتُ مَلِكْنَاهُ
كم بالعراق وكم بالهند ذو شَجِي	شكا فردد الأهرام شكواه
بى العمومة إنَّ القرَح مَسْكُومو	وَمَسْنَا، نحنُ في الآلام أشباهُ

يا أَهْلَ يَثْرِبَ أَذِمْتَ مُقْلَتِي يَدُ
الدِّينِ وَالضَّادُ مِنْ مَغْنَاكُمُ انْبَعَثَا
لَسْنَا مَعَكُمْ لَكُمْ أَيْمَانَا صِلَةٌ

هَلْ كَانَ دِينَ ابْنِ عَدْنَانَ سِوَى فَلَقِ
سَلِ الْحَضَارَةَ مَاضِيهَا وَحَاضِرَهَا
هِيَ الْحَنِيفَةُ غَيْنُ اللَّهِ تَكَلُّوْهَا
هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الْمُخْتَارِ مُعْجِزَةً
مَنْ وَحَّدَ الْعَرَبَ حَتَّى كَانَ وَاتَرَهُمْ
وَكَيفَ كَانُوا يَدَا فِي الْحَرْبِ وَاحِدَةً
وَكَيفَ سَاسَ رُعَاةُ الْإِبِلِ مَمْلَكَةً
وَكَيفَ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ وَفَلَسْفَةٌ
سُئِلُوا الْمَسَاوَاةَ لَاعَرْتُ وَلَا عَجَمُ
وَقَرَّرْتُ مَبْدَأَ الشُّوْرَى حُكُومَتُهُمْ
وَرَحَّبَ النَّاسُ بِالْإِسْلَامِ حِينَ رَأَوْا
يَا مَنْ رَأَى عُمَرَاً تَكْسُوهُ نُرْدَتُهُ
يَهْتَرُ كَسْرَى عَلَى كُرْسِيِّهِ فَرَقَاً
سَلِ الْمَعَالِي عَنَّا إِنَّا عَرَّتْ
هِيَ الْعَرُوبَةُ لَفَطٌ إِنْ نَطَقَتْ بِهِ
اسْتَرْشَدَ الْعَرْتُ بِالْمَاضِي فَأَرْشَدَهُ
بِاللَّهِ سَلِ خَلْفَ مِحْرِ الرُّومِ عَنْ عَرَبِ
فَإِنْ تَرَاءَتْ لَكَ الْحُمْرَاءُ عَنْ كَتَبِ
وَانْزِلْ دِمَشْقَ وَسَائِلَ صَحْرَ مُسْجِدِهَا
وُطْفَ نَعْدَادَ وَابْحَثْ فِي مَقَابِرِهَا

بَذْرِئَةً تَسْأَلُ الْمَصْرَى جَدَّوَاهُ^(*)
فَطَبَّقَا الشَّرْقَ أَقْصَاهُ وَأَذْنَاهُ
لَكُمَا هُوَ دَيْنٌ مَا قَضِيَّاهُ

شَقَّ الْوَحُودَ وَلِيلِ الْهَجْلِ يَعْشَاهُ
هَلْ كَانَ يَتَّصِلُ الْعَهْدَانِ لَوْلَاهُ
مَكَلَّمَا حَاوَلُوا تَشْوِيْهَا شَاهُهَا
يَكْفِيهِ شَعْبٌ مِنَ الْأَجْدَاثِ أَحْيَاهُ
إِذَا رَأَى وَلَدَ الْمُتَوَرِّ آحَاهُ
مَنْ خَاضَهَا بَاعَ ذُنْيَاهُ بِأُخْرَاهُ
مَا سَاسَهَا قَيْصَرٌ مِنْ قَبْلِ أَوْشَاهُ
وَكَيفَ كَانَتْ لَهُمْ سَفْنٌ وَأَمْوَاهُ
مَا لَامَرِيَّ شَرَفٌ إِلَّا تَقْوَاهُ
فَلَيْسَ لِلْفَرْدِ فِيهَا مَا تَمْنَاهُ
أَنَّ السَّلَامَ وَأَنَّ الْعَدْلَ مَعْرَاهُ
وَالزَّيْتُ أَذْمُ لَهُ وَالْكُوْخُ مَأْوَاهُ
مَنْ نَاسَهُ ، وَمُلُوكُ الرُّومِ تَحْشَاهُ
شِعَارُهَا الْمَجْدُ يَهْوَانَا وَنَهْوَاهُ
فَالشَّرْقُ وَالضَّادُ وَالْإِسْلَامُ مَعْنَاهُ
وَنَحْنُ كَانَ لَنَا مَاصِي نَسِيْنَاهُ
بِالْأَمْسِ كَانُوا هُنَا مَا بِالْهَمِّ تَاهُوا ؟
فَسَائِلُ الصَّرْحِ أَيْنَ الْمَجْدُ وَالْجَاهُ
عَمَّنْ بَنَاهُ ، لَعَلَّ الصَّخْرَ يَنْعَاهُ
عَلَّ امْرَأً مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ تَلْقَاهُ

(*) من نصف قرن حلت بالمدينة المورة مجاعة ، فأسرعت السفن المصرية محملة بالقمح إلى عدة اللد الطيب .. والشاعر يرى ذلك بعض ما يحى ! .

هَذِي مَعَالِمُ حُرْسٍ كُلِّ وَاحِدَةٍ
إِنِّي لِأَشْعُرُ إِذْ أَغْشَى مَعَالِمَهُمُ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا قَلْبْتُ سِيرَتَهُمْ
أَيْنَ الرَّشِيدُ وَقَدْ طَافَ الْغَمَامُ بِهِ
مُلْكٌ كَمَلِكِ بَنِي التَّامِيزِ مَا عَرَبَتْ
مَاضٍ نَعِيشُ عَلَى أَنْقَاضِهِ أُمَمًا
لَا دَرَّ دُرٌّ أَمْرِي يَطْرِي أَوَائِلُهُ
مَابَالُ شَمْلِ بَنِي قَحْطَانَ مُصِيدِعًا ؟
عَهْدُ الْخِلَافَةِ فِي الْبُسْفُورِ قَدْ دَرَسَتْ
عَرْشُ عِتِيدٍ عَلَى الْأَثَرِ نَعْرَضُهُ
أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ فَدَّاهُ مُعَاوِيَةُ
غَالِ ابْنِ بَنِي رَسُولِ اللَّهِ ثُمَّ عَدَا
لَمَّا ابْتَغَى يَدَهَا السَّفَاحُ أَمْهَرَهَا
مَا لِلْخِلَافَةِ دَنْتٌ عِنْدَ شَانِئِهَا
الْحُكْمُ يَسْلِسُ بِاسْمِ الدِّيِّ حَامِحُهُ
يَارْتُ مَوْلَى لَهُ الْأَغْنَاقُ حَاضِعُهُ
إِنِّي لِأَعْتَبِرُ الْإِسْلَامَ حَامِعَةً
أَرْوَاحًا تَتَلَقَّى فِيهِ خَافِقَةٌ
دُسْتُورُهُ الْوَحْيُ وَالْمُخْتَارُ عَاهِلُهُ
لَا هُمْ قَدْ أَصْحَحَتْ أَهْوَاؤُهَا شَيْعًا
رَاجِعٌ يُعِيدُ إِلَى الْإِسْلَامِ سِيرَتَهُ
مِنْهُمْ قَامَتْ خَطِيئًا وَآخِرًا فَاه
كَأَنِّي رَاهِبٌ يَغْشَى مُصَلَّاهُ
يَوْمًا ، وَأَخْطَأُ دَمْعُ الْعَيْنِ مَحْرَاهُ
فَحِيرَ حَاوِرَ بَغْدَادَ تَحْرَاهُ
تَسْمُسُ عَلَيْهِ ، وَلَا تَرْقُ تَخْطَاهُ
وَسَيَّمْتُ الْقَوَى مِنْ وَحْيِ ذِكْرَاهُ
مَحْرًا ، وَيَطْرُقُ إِنْ سَاءَلْتَهُ مَا هُوَ ؟
رَبَّاهُ أَذْرِكُ بَنِي قَحْطَانَ رَبَّاهُ
آتَاهُ ، طَيَّبَ الرَّحْمَسُ مَتَوَاهُ
مَا بَالُنَا بِجِدِّ الْأَثَرِ تَأَنَاهُ
وَكَيْفَ رَاحَ عَلِيٌّ مِنْ صَحَابِيَاهُ
عَلَى ابْنِ نَيْبِ أَى بَكْرٍ فَأَرْزَاهُ
هَرَا مِنْ الدَّمِ فَوْقَ الْأَرْضِ أَحْرَاهُ
قَدْ يَظْلِمُ السَّيْفُ مِنْ حَاتَتِهِ كَفَاهُ ؟
وَمَنْ يَرْمُهُ بِحَيْدِ السَّيْفِ أَعْيَاهُ
وَرَاهِبُ الدَّيْرِ بِاسْمِ الدِّينِ مَوْلَاهُ
لِلشَّرْقِ ، لَا مَحْصَنَ دِينِ سَنُهُ اللَّهُ
كَالتَّحَلُّ إِذْ يَتَلَقَّى فِي حَلَايَاهُ
وَالْمُسْلِمُونَ - وَإِنْ شَتَوَا - رَعَايَاهُ
فَامْسُ عَلَيْنَا بِرَاجِ أَتَتْ تَرْصَاهُ
يَرْغَى بَنِيهِ وَعَيْنُ اللَّهِ تَرْغَاهُ
هَذَا الْأَدَبُ الْحَايُ عَلَى الْإِسْلَامِ الْمَشِيدُ بِأَمْحَادِهِ يَجِبُ أَنْ يَدْرَجَ فِي أَكْفَانِهِ . !

الأدب الذى يرد للعرب رشدهم ، ويصبرهم برسالتهم ، ويحدوهم إلى أدائها لا يجوز أن يحيا ! الأدب المطلوب هو أدب التسالى والجدوى ، أدب الضياع والإدما .
الموضوع الأثير الجذاب هو الحسن ، الجريمة ، الضحك ، الدعاية للمجتمعات

الأوربية والأمريكية ، كل ما يفصلنا عن ماضيها الإسلامي ، وتاريخنا العريق ...

فهل الأمر كذلك وراء حدودنا ؟ إسى أسوق هذه التماذج المتنوعة ليعلم التائهون أين هم في ديا الناس ! كتب الأستاذ « عبده مباشر » في الأهرام هذه الكلمة : « خلال ريارتي لأوروبا ، أتيتحت لى فرصة مشاهدة فيلم « الصقر » الذى يلعب دور البطولة فيه الممثل العالمى الإيطالى المولد فرانكو بىرو والفيلم من إنتاج يوعسلافى وتلدور أحداثه أثناء وقوع الصرب فى دائرة الامراتورية العثمانية - « الصرب الآن إحدى أهم الجمهوريات التى تتكون منها دولة يوعوسلافيا » والفيلم من البداية للنهاية لا هدف له إلا تشويه صورة الإسلام والمسلمين ، وقصته ببساطة تصور هجوما قام به حنود أتراك إحدى القرى الصربية بعد أن خرج عدد من الرجال للصيد من بينهم البطل ستراهيا « فرانكونيرو » ويقتحم الحنود بيت ستراهينا ويستولون على زوجته الحساء ، وبعد عودة ستراهينا يحاول استرداد زوجته بأى طريقة . ويواصل نذل المحاولات والجهد حتى يوفق ..

ومشهد البداية يمتل خروج البطل ممتطيا صهوة جواده مع عدد من الأصدقاء فى رحلة صيد ومعه صقره المدرب على اقتناص الفريسة .. وبعد أن يعادر هذا العدد من الرجال القرية يبدأ الحنود الأتراك المسلمون فى الهجوم عليها وقتل التسيوح والأطفال واعتصاب النساء والاستيلاء عليهن بما فى ذلك راحة البطل العائب التى ترتدى تيابا بيضاء ، وطوال فترة الهجوم والقتال تسمع كلمات وحملات عربية من بينها « الله أكبر » - « يا الله » . وكأن المخرج ينقل للمشاهد من البداية أن المصائل والسل والطهارة من نصيب أساء الصرب ، فالفروسية والصيد من المصائل والأعمال النبيلة والزى الأبيض رمز للطهارة .. أما الرذائل فهى من نصيب الأتراك المسلمين الذين يهاجمون قرية بعد أن عاب عنها حمايتها ، ويقتلون التسيوح والنساء ويستولون على عدد من النساء ويعتصون عددا آخر ..

ثم ينتقل المخرج ليصور لنا مشهدا للحنود الأتراك مع قائدهم الذى يسمى « على » فالقائد يخلص ليدحر الحشيش أما القاقون فإما أنهم يدحون مثله أو يتسولون منه الحشيش وللحصول على قطعة من الحشيش لا بأس من التوسل والرخاء والركوع

وهكذا ببساطة يصح كل المسلمين القادة والحنود والناس قتلة ومغتصبى نساء

بل وحشائتين بلا كرامة .. ويواصل الفيلم رحلته ، حيث يضطر القائد إلى قتل رفيقى طريقه غدرا ، وهو ذاهب للقاء ستراهيا .. ومتشهد القتل لا يعطى انطبعا واضحا بالعدر فقط بل يكرس ارتباط الغدر بالخلق الإسلامى فالقائد القاتل ، يقتل وهو يقول « اتشهد أن لا إله إلا الله » « الله أكبر » ، ويعمد سيفه فى الضحية الأولى .. تم يتقل ليعمد سيفه فى الضحية الثانية ، وهو يواصل نفس القول . تم يمسح الدماء من سيفه وهو سعيد مرددا نفس القول ، والمخرج يربط عمدا بين القتل والغدر ، وبين الشهادة والتكبير ، حتى يطبع فى ذهن المشاهد هذا الارتباط ، مثلما ارتبط هجوم الأتراك المسلمين على القرية يقتلون أهلها وهم يرددون « الله أكبر » . ويقينا فإن هذا الفيلم ليس العمل الوحيد ، ولن يكون الأخير فى سلسلة الأعمال التى تستهدف تشويه صورة الإسلام والمسلمين وأمام هذه الحملة التى لم تتوقف يبقى السؤال . وما العمل ؟

هذا دور « الفن » فى صرب الإسلام ، وهاك مثلا من دور « الدبلوماسية » فى الهجوم على أرضه ، واستباحة جماهير المؤمنين فوقها ، أنقله من العدد الخاص الذى أصدرته مجلة « روراليوسف » احتفالا بمرور ثلاثين سنة على حرب التحرير ..

وقد بدأ الكلام بوصف مسلمى الجزائر فى مذكرات كتبها بيده « وليام شالر » القنصل العام الأمريكى فى الجزائر بين عامى سنة ١٨١٦ ، سنة ١٨٢٤ . والوصف ناضح بأن المسلمين فى هذا البلد نمادح حسنة للطيبة وحسن الخلق والبعد عن العدوان .

وودع الحديث للقنصل الأمريكى . يقول القنصل :

« إن المعلومات التى وصلت إلينا منذ العصور العابرة تتهم سكان هذا البلد بعدم الاستقرار والحداد ، وهذا الاتهام قد يوحد ما يبرره فى الوقت الحاضر ولكن هؤلاء السكان أعد ما يكونون عن البربرية التى يصف بها البعض الجزائريين فإن فى سلوكهم لياقة ومجاملة ، وأنا قد وحدتهم فى المعاملات اليومية - دائما - مهديين ومتمددين وإسائيين ، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصب الدينى ، أو الكره للأشخاص الدين لا يدينون بدين آخر غير دينهم .. إنهم يدينون بالإسلام ويقومون بكل مواظبة وإخلاص بالواجبات التى يفرضها عليهم

دينهم ولكن بدون ماهاة أو تصنع ، ولا يضمرون عداوة للأشخاص الذين يسلكون طريقا آخر للحصول على رضا الله ... »

المدعش أن هذا القصل بقى على حقه القديم ، فلم يفكر فى إصلاح نفسه بعد أن شاهد ما شاهد من سماحة المسلمين واعتدالهم ! إن المواريث الكامنة فيه كانت أعمق شرا ، ومن ثم فقد درس أنجح الخطط لاحتلال الجزائر بعد أن تفقد حصوها ، وعرف نقط الضعف والقوة فيها . . ترى كيف قدر على ذلك ، ومن الذى يسر له هذه الفرص ؟

يظهر أن المسلمين كانوا يحسبون شعب الولايات المتحدة بريئا من العلل التاريخية الأولى ، وأن ظفره بحريته بعد حرب صروس مع انجلترا سيجعله كارها للاستبداد والعدوان !

وكان المسلمون سدحا فى هذا الظن ! فقد جدّد الأمريكان تاريخ الرومان حدودك العلى بالنعل ، ولم يتركوا خطة لضرب العرب والمسلمين إلا سلكوها ... فلذكر الوثيقة التى كتبها ممثل الولايات المتحدة فى الجزائر لإرشاد الهاجمين من وراء البحار على أخطر الطرق وأجداها .. قال .

« .. كان نزول الجنود فى جميع الحملات العسكرية التى شنت على مدينة الجزائر من البحر ، يتم فى الجانب الشرقى من الخليج ، وهذه بالتأكيد غلطة لا تغتفر وتعود إلى جهل بشاطىء البلد وطبوغرافيته حيث إن جميع وسائل الدفاع قد تركزت فى هذه المنطقة .. ومن الواضح أن جيشا يمكنه النرول فى خليج سيدى فرح الجميل دون أن يجد عقبات تذكر ، ومن هناك يمكنه فى مرحلة واحدة أن يصل إلى الهضاب التى تسيطر على موقع قصر الإمبراطور وعندئذ سوف لا يجد عائقا فى طريقه نحو هذا الحصن والاستيلاء عليه بالقوة إما بتسلق أسواره أو بنسفها بالألغام » !! يكشف شالر المزيّد من هذه المعلومات الخطيرة ويقول : « متى سيطر الجيش على هذا الحصن وثبت مدفعية قوية فى الهضاب التى تشرف عليه ، سيطر على الموقف .. وإنزال قوات فى سيدى فرج لابد أن يرافقه ظهور قوات بحرية فى وسط الخليج للتمويه على العدو وعقب ذلك تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة .. » !! وهذا بالضبط ما فعلته قوات الاحتلال الفرنسية .. وهكذا يكشف التاريخ ان الولايات المتحدة الأمريكية وكانت دولة ناشئة فى ذلك الحين

هى أول من قدم مساعدة « حيوية » لفرسا فى احتلالها : .. للتراب الوطنى
الجزائرى . »

أحوال اليوم وآمال الغد

مع اضمحلال الدولة الإسلامية خلال القرون الأخيرة انعد التفسير الصليبي نقارة
إفريقية ، ورسم سياسة دقيقة للاستحواذ عليها .

كان الإسلام ، الدين السماوى الأول فى هذه القارة ، وكان يكتسب بثبات أرضا
حديثة من الوثنية السائدة ، فلما دخل الأوربيون قرروا لغورهم تغيير هذا الوضع
والطريف أنهم عدّوا أنفسهم مكتشفين لبقاع شتى كان العرب قد عرفوها من قبل ،
فالبحيرات العظمى التى ينبع منها النيل كانت معروفة للجغرافيين العرب .. غير أن
المستعمرين الجدد لما وصلوا إليها خلعوا عليها أسماءهم فإذا نحن أمام بحيرة
« فيكتوريا » وبحيرة « ألبرت » .. ألغ وهذه البحيرات تدرس بأسمائها الجديدة فى
البلاد العربية لطلاب المراحل الدنيا والعليا ... !

واقترس الأوربيون القارة الغفل وشرعوا فى تنفيذ برامجهم الاستعمارية والتبشيرية ،
رأوا — تمسّيا مع اتجاه العصر — أن يحولوا المستعمرات إلى دول حديثة فأنشأوا
عشرات من الحكومات المستقلة (!) وراعوا فى تكوينها تقطيع الأواصر الإسلامية ،
وتشتيت أجزائها ، وجعل السلطة بأيدي حريجي المدارس التبشيرية وحدهم ، وحل
الكثرة المسلمة تذلل وتقل على مر الأيام .. بل لقد وضعت خطة عامة لتقويض
الإسلام فى إفريقيا كلها مع نهاية القرن العشرين ! ! ولكن الأمور جرت على نحو
آخر ، فإن فرى كاملة ، وقبائل بأسرها أخذت تعتنق الإسلام ، وتهجر وتنتيها
الأولى ... وكنت فى مجلس يضم عدداً من رؤساء الجامعات العربية قرأوا ما نشرته
جريدة « الموند » البارسية تعليقا على هذه الإنكاسة التبشيرية ! قالت الجريدة فى
غيظ : كيف يقع هذا ؟ وكيف يلقى الإسلام هذا القبول ؟ ثم تتجه إلى الزوج
الذين أسلموا مويحة لهم على إسلامهم ، قائلة أنسى هؤلاء ما فعله المسلمون الأولون
بآبائهم ؟ كانوا يحطفونهم ويبيعونهم عبيدا ؟ فكيف يدخلون فى هذا الدين ؟ ونحن

لانتعرب من الجريدة الفرنسية أن تهمننا نحن المسلمين بما كان يفعله الأوروبيون في إفريقيا خلال القرون الوسطى ، لقد ظلوا خمسمائة عام يحتطفون السود من غرب إفريقيا ويشرفون على تحارة عالمية للرقيق مفعمة بالمآسى ، إن الجريدة التي صدرت في أواخر يناير سنة ١٩٨٥ تذكرنا بالمثل القديم : رمى بدائها وانسلت ! ترى أيدى المسلمين ما يقع ؟

إن نقاء الإسلام وغماءه في بقاع كثيرة لايعودان إلى نشاط الأتباع ويقظتهم ... بل يرجع ذلك إلى سلامة عقائده ، ويسر تعاليمه ، وتلاقيه مع فطرة الله في الأنفس والآفاق ، ولكن غيابنا نحن المسلمين عن معترك المذاهب والاتجاهات العالمية له آثار سيئة ، إن محونا منها اليوم فلن ننجو في الغد ، وحسانا عند الله عسير . أما الآن معلومات قليلة عن جمهورية « رواندا » التي هي واحدة من بضع وخمسين دولة أنشأها في إفريقيا الاستعمار الجديد ... عدد السكان نحو ربع المليون ! في سنة ١٩٠٠ لم يكن بها نصارى وحسب الإحصاء المعلن يبلغ عددهم الآن ٥٠٪ من تعداد السكان على حين يبلغ المسلمون — كما يقال — ٧٪ والباقي وثنيون .. وأنا شديد الريبة في هذه الإحصاءات ؛ لأنني لمست تزويرها في أقطار كثيرة واستيقنت أن عدد المسلمين أكبر وعدد غيرهم أقل ، ولايعنيني ذلك الآن ، وإنما الذي استوقفني أن ثلث المبعوثين للتعلم في الخارج ظفر بهم الاتحاد السوفيتي ، والباقي موزعون على إيطاليا وكندا وسويسر وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وزائير والسنغال .. الخ . وهذه النسب تفسر لنا لماذا تحولت دول شتى غداة استقلالها إلى الشيوعية ، ولماذا ترتبط دول أخرى بالغرب ، وتفتح أحضانها لدعاياته وفلسفاته ، ولماذا تبقى اللغة العربية في عزلة ، ويبقى الكتاب العربي قليل القراء .. والإسلام هناك محروم من جملة وسائل الإعلام ، وبديهي أن تكون علاقة المسلمين في « رواندا » شبه معزولة عن العالم الإسلامي وقد استوقفني أمر آخر ذو بال ، أن المسلمين هناك يعانون من خلافات وانقسامات شديدة ! واستنتجت أن الخلاف بين الصوفية والسلفية أو بين السلفية والمذهبية ومن يدرى ؟ لعل الاشتباك مع الجهمية والأشاعرة

قال الرواي : وقد افتتح أخيرا ناد تبشيري في ضاحية تسكنها أغلبية مسلمة وأطلق على النادى إسم « ناد رفيقى » ! قلت في نفسي : لعل الذين افتتحوه طامعون في أن يصلحوا ذات يسا ! ! ما أفقرنا إلى الوعي ...

مستقبل الإسلام رهين — بعد مشيئة الله — بمجهود أبنائه لا بإرادة أعدائه ... على حمتهم وحدها يكون الفصل في هذا النزاع الطويل ، وتحدد وجهة الإنسانية ...

المسلمون ما اهزموا قط ، ولن يهزموا أبدا إلا لخلل في صفوفهم هم ...

وقد أراد الله أن يكونوا العرب رعويا بالإسلام ، قادة برسالته ، فإذا عاودهم الحنين إلى جاهليتهم ، وآثروا الانتماء إلى قوميتهم ، فنحن نذرهم ، بقول الحق ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ أَخْرَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ (٩٨)

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام نجدت العرب في فلسطين ، وحررت بيت المقدس يوم غرق العرب في حلافاتهم وأحاطت بهم مآرهم وحطاياهم ومكنوا الصلحس الأوائل من اجتياح البلاد والعباد وأجروا مدابح تقشعر منها الجلود ...

ويبدو أن العرب يقتربون ذات الأخطاء في هذه الأيام ، ويذكرون قوميتهم وينسون عقيدتهم وستجعلهم الأقدار أحاديث إن لم يسرعوا بالمتاب ...

وكلمة أخرى نقولها للعرب والمسلمين : ما هذه الجهالة الفاحشة بشئون الكون والحياة ؟ وكيف تخدمون دينكم وأنتم صرعى ، تحلف علمى مدهل ؟؟

إن اللص إذا كان عارفا بأسرار البيت ، ومراقفه ومداخله ، ومحارجه ، وغرفاته ، وسراديه فهو أولى به من رب البيت الذى يعيش فيه دون أن يدري شيئا من ذلك كله ...

إن الله أسكنكم هذه الأرض كما أسكن غيركم فكيف يسخر غيركم قواها ، ويهيم على مداها وأنتم في أماكنكم لاتصنعون شيئا ؟ ماذا يشعلكم ؟ التسبيح والتحميد ؟ الله يعلم أنكم عن طاعته مصروفون ! إن هذا الطمس عقوبة لإلهية على تناول الدين قشورا لاحقائق ، وعلى تحريف الكلم ، عن مواضعه ، لقد أسقطتم الأخلاق عن عرشها فأعيدوها إلى مكانتها ، وتعلموا التمام لا النقص ، والجمال لا التشويه ! إن الإنسانية انضباط لا فوضى ، والإسلام حكمة ونظام لا أهواء جامحة ...

يقال للدابة حين لا يربطها حل ، ولا يقفها قيد ، إنها سائبة ، أو حبلها على غارها ، فهي تنطلق كيف تشاء ! فمادا يقال للجماعة حين لا تربطها كلمة ، ولا

تضبطها عقيدة ، ولا تقفها حدود من أخلاق أو تقاليد ؟ إن الشاكين من هذا الوضع سمّوا ذلك تسيبا ! والسبب أو التسيب كلمات عربية صحيحة ، ولكنها ليست معالم عربية ، ولا عرفا موروثا ، وعندما ننزها موازين الدين نجد كتابنا يعدّها من معالم الفسوق والعصيان . وتدبر قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾^(٩٩) إن الجملة الأخيرة تدل على أن الأمر الفرط ، أو الوضع السائب ، أو المجتمع المحلول يحىء ثمرة غفلة القلب ، واتباع الهوى ، سواء أكان ذلك فى أحوال النفس أم فى أخلاق الجماعة ! والحق أن الأمة الإسلامية أبعد الأُمم عن هذا الانفراط فى عقدها ، أو التسيب فى شئونها ، أو الفوضى فى علاقاتها ، لو أنها وقية لدينها ، وقائمة على نهجه .. ويبدأ ذلك كله باحترام الكلمة ، وإحاطتها بنطاق من الجدّ والصراحة ، وفى الحديث الشريف « إذا حدثك أخوك بكلمة ثم التفت فهى أمانة » ! وفى الحديث أيضا « المجالس بالأمانات » ويقول الله سبحانه فى وصف المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾^(١٠٠)

إن المجتمع المؤمن متماسك بعزائم الرشد ، متعارف على حدود الله . وحقوق الناس وربما استهان البعض بكلمة لغو ، أو تورط فى عمل ردىء ، بيد أن هذا العوج لا يطول أمدّه ، أو تتسع دائرته ؛ لأن الإسلام الصحيح يرفض بشدة تسيب القطيع . ترى هل الموظف الذى يقول لصاحب الحاجة : تعال غدا ، فإذا جاء الغد كرر التسويف مثنى وثلاث بأعذار شتى ، أتظن ذلك امرا يعرف قيمة الكلمة أو قيمة الوقت أ. قيمة الوظيفة التى يشغلها ؟ أم هو امرؤ سائب .

عندما اقترحت بنت شعيب على أبيها أن يستأجر موسى ليدبر أعماله قالت فى تعليل اقتراحها ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ ﴾ أى أنه يجمع بين القدرتين العلمية والخلقية . أما يوسف الصديق فعندما رشح نفسه لإدارة الأموال وشئون التموين ، فقد اكتفى بذكر خبرته ومهارته فقال ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾^(١٠١) وكأنه ترك لماضيه الطاهر أن يشهد له بالاستقامة والشرف ... ونحب أن نفرق بين نوعين من مراتب الإحسان والعظمة النفسية هناك رجل راشد يعرف الصواب ويستمسك به ، وهناك رجل يضم إلى ذلك تدريب الناس على الحق واقتيادهم به ، إنه راشد مرشد ! هناك رجل صالح يتقى الله ويحرص على أداء حقوقه ، وهناك رجل يضم إلى ذلك غرس أعواد التقوى فى

(٩٩) سورة الكهف ٢٨

(١٠٠) سورة المؤمن ٨

المجتمع ورعايتها حتى تزهر وتثمر ، إنه صالح مصلح ! الصنف الثانى أعظم درجة من الصنف الأول ، ولامر ما جعل الله الإمام العادل أى الحاكم الأمين أول من يظلمهم الله . بظلمه يوم لا ظل إلا ظله .. إن الإدارة الناجحة النزيهة هى سيدة الأعمال الصالحة ؛ لأنها تمكين للخير فى الأرض ، ونقل له من عزلة الصوامع إلى ضجيج الحياة ومعتك المعاش ، إنها صلاح يتعدى صاحبه إلى غيره ، ويتحول به الحق من فكر إلى واقع ...

والحضارة الحديثة من أنجح الحضارات فى فن الإدارة ، فهى تضع الخطط وترقب التطبيق وتسد الثغرات ، وتتعرف الأخطاء ، وتحصى الوقت ، وتجدد المواهب ، ولا تترك شيئاً للمصادفات ، أما نحن العرب والمسلمين ، فأصحاب علل شتى فى فن الإدارة ، ولأدري لماذا فهمنا الصلاح على أنه العبادات المحضة ؟ هذا تحكير مسكر للعموم الشامل الذى قال الله فيه ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ﴿ فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾^(١٠٣) . إن العمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شىء فى الحياة تباشره باسم الله ، فالمفكر تعلمه والطبيب بسماعته والمدير أمام ملفاته والمهندس أمام أجهزته والزارع المنحنى على أرضه يستثمرها ، والصانع العاكف على آلاته يحركها ، أولئك جميعاً فى صلاة ما دامت قلوبهم مع الله ، وجهدهم لأمة ترقب إنتاجهم وتنجع بنجاحهم .

(١٠٢) سورة يوسف ٥٥

(١٠١) سورة القصص ٢٦

(١٠٣) سورة الأنعام : ٤٨ .

الوحدة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة . . . ؟

أرى في صدر حديثي أن أنصف الانتاء الإسلامي الذي أخرجته الليالي وألحقت به هزائم شتى !

إن هذا الانتاء حقيقة شريفة القدر ممتدة الأثر ، موصولة بأعظم تراث في الوجود فالقرآن هو الوحي كله من أرل الدنيا إلى أبدا ، وكل ما خالفه متوت الصلة بالسماء

ومحمد هو الإنسان الأول شرف سيرة وصدق بلاغ ! وهو أعلى قمة في تاريخ الأحياء .

والإسلام هو المنهج الذي توارث النبيون الدعوة إليه وافتياذ البشر فيه ، فكيف يكون الانتاء إليه خفيض الصوت أو دليل الحانب أو موضع الإهمال ؟ وكيف تتقدمه أو ترجح عليه دعوات وطية أو نزعات عرفية ؟ إن الاستماع إلى هذه الدعوات والنزعات قطع أوصال المسلمين ، وجعل الأمة الواحدة أمما متناكرة ومكن ذئاب الاستعمار العالمي من الانفراد بكل أمة والإحهاز عليها ماديا وروحيا .

وما نستعيد مكانتنا ونصون رسالتنا إلا إذا صححنا انتاءنا ، وأصغينا إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٠٤) .

إن اليهودى في أية قارة يرفع عقبرته بانتائه الأثير لديه ويقول دون حذر أو خجل : أنا يهودى ! حتى السيخ في هذه الأيام رأوا أن يكون لهم انتاءهم الخاص بهم فهل الانتاء الإسلامي وحده هو الذى يقال في خفوت ؟ ويرسل في وجل ؟ لماذا يعامل الحق بهذه الحسة ؟ وكيف نرضى الدنية في ديننا ؟

إن العمل للوحدة الإسلامية شرف باذح ، ومجد شامخ ، ويجب على العرب قبل غيرهم من الأجناس التى تكون الأمة الإسلامية الكبرى ، أن يدركوا هذه الحقيقة وأن

(١٠٤) سورة الأنبياء ٩٢

يربطوا ولاءهم بدينهم لا بجنسهم ، وأن يستضيئوا في نهضهم بشرائع الإسلام
وشعائره ؛ لا بالفضلات التي يلتقطوها من موائد الغرب أو الشرق !

وليعلموا أن أعداءهم قد بيتوا النيات على الخلاص منهم ، وأن التهام فلسطين تمهيد لما
وراءه ، وأن المؤسسات الدولية أعجز من أن تنصفنا لو أرادت فكيف وهي لاتلقى
لنا نالا ؟ لقد آان الأوان لنصحح انتماؤنا ومسيرتنا .. !

على أن هذا التصحيح لا يجوز أن يكون إثارة عاطفية عشواء ، بل ينبغي أن
ندرس بأناة الأسباب التي جعلتنا في العالم الثالث أو الرابع بعد أن كما وحدا العالم
الأول دهرا طويلا ..

إنها أسباب كثيرة ، ثقافية واجتماعية وسياسية ! وسأتناول هنا الحجاب التقاى
لأن البعض يغفل عن خطورته .

ورأى أن الثقافة التي آلت إليها في القرون الأخيرة كانت ضحلة آسة لا في محال
المعرفة الدينية وحدها ، بل في مجال الأداء الأدبى كذلك ، وأن هذه الثقافة كانت
أعجز من أن تصنع أمة تنهض برسالتها ، وتخدم كتاب ربها وسنة نبيا .

كانت ثقافتنا في العصور الأولى تصنع أجيالا عارمة ، قادرة على المحو والإثبات ،
تحتزم الحقائق وتعشق الفضائل ، تضع خريطة الدنيا أمام عبيها ، وتظهر إليها كما ينظر
لاعب الشطرنج في رقعة ينقل أحجارها كيف يشاء !
لقد كان أبو الطيب يعرف المجد فيقول :

ولا تحسبن المجد رقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وكان أبو تمام يصف أغراض الشعر في عصره فيقول .

ولولا حلال سنها الشعر مادرى بغاة العلا ، من أين تؤتى المكارم

ثم أخذ الأدب شعرا ونثرا يهبط حتى أمسى وصفا لشمعة أونصحا عثا لتلميد
كسول .

وكذلك هبط العلم الدينى وتقوقع رحاله في تخصصاتهم الدينية لايمدون أنوفهم
وراءها

فعالم التجويد يعيش في عالم من الغنى والمدود ، والفقيه في العبادات يحيا في ميدان من الأغسال والطهارات .. وهكذا ..

وقد كتب « الكسيس كاريل » في كتابه « الإنسان ذلك المجهول » يعيب الغارقين في تخصصاتهم الطبية ، ويؤكد أن العلم بالإنسان لا يتم عن هذا الطريق . ونقول نحن : إن العلم بالدين كله لا يتم عن طريق تجارة التجزئة ، وأن الصورة الكاملة للإسلام إنما تتم على النحو السلفي الأول ، وأن العقل الإسلامي المعاصر يجب أن يرتفع إلى مستوى الشمول في القرآن الكريم حتى يستطيع إعادة بناء الأمة الواحدة التي لاتحد رفعتها على سطح الأرض خطوط الطول والعرض ..

في القرآن المكي يقول الله تباركت أسماؤه : ﴿ قُلْ يُعَادِلُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رِزْقَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هُدًى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ (١٠٥) .. ويقول : ﴿ يُعَادِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٠٦)

وعرف المسلمون بالبداهة أن أمة العقيدة لا يحصرها مكان ، وأن إخوان العقيدة لا يحدهم جس ، وأن المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يسلمه ، وأن المسلم إذا استبيح دمه على شاطئ المحيط الهادى في الفلبين يجب أن يتحرك له أخوة على شاطئ الأطلسي في المغرب والسنغال ونيجيريا ، وأن المسلمين كما قال نبهم تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ...

لكن يبدو أن التقوقع العقلي والنفسي ضرب صفحا عن هذه المعاني البينات ، فإذا الأمة الكبرى يعار عليها من ها هنا وها هنا ونتنقص أطرافها .

والاتجاه الآن ماض إلى قلبها ولا يرال النيام يغطون !

أن عالمية الإسلام ليست في سعة الدائرة التي يعمل فيها فقط ، وإنما هي في طبيعة توجيحاته وصياغة آياته ، فالكتاب والسنة يخاطبان الإنسان حيث كان دون احصار في زمان أو مكان ! إلهما ارتباط بالفطرة ، وحوار مع العقل البشرى تحت أى سماء وإلى آخر الدهر .

ومن ثم ففهم الإسلام أو تدريسه على أنه نهضة عربية أو يقظة محلية أكذوبة كبرى !

(١٠٥) سورة الزمر ١٠

(١٠٦) سورة العنكبوت ٥٦

وكذلك تناوله من زاوية خاصة ، وعدم الوصول بمعايه إلى أبعادها الأبدية العامة ..!

وهناك ظروف أو بينات تترك طابعها على العقل العادى ، فالفلاح فى قريته أو العامل فى مصنعة ، ينظر إلى الدنيا ، وإلى المسافات بين أقطارها نظرة ضيقة . أما سائق السيارة أو قائد الطائرة فإن نظريته إلى المسافات أرحب وجراءته على طيها أسرع ، لأنه يألف التنقل والانطلاق .

والثقافة الإسلامية الأولى كانت تصنع عقولا من الطراز الطيار ، أما هذه الثقافة فى أيامها الأخيرة فهى تصنع عقولا تحسن الاعتكاف والانزواء ..

ونشأ عن ذلك أن الاستعمار العالمى لما بدأ زحفه فى آسيا — شرقا وجنوبا وشمالا — وبدأ زحفه فى إفريقية من كل ناحية كان الإحساس بالألم يمر بكيان سرى فيه الحذر ، وتفاوت فيه الحس .

ولا يزال ناس من أهل العلم — كما يوصفون — لا يعلمون شيئا عن دولة فطاني فى « تايلاند » مثلا ، ولا يعلمون شيئا عن حماهيم كثيفة من المسلمين تعيش فى عتبرات الدول الإفريقية ضائعة الهوية كاسفة البال قليلة الرجاء !
لمادا ؟ لأن العقلية التى تشرح الأخوة الإسلامية ، أو الولاء الإسلامى ، أو عبادة الله الواحد فى العالم الكبير الذى تعيش فيه ليست عقلية « الطيار » التى أثمرنا إليها ، وإنما هى عقلية فلاح محدود الوعى !

ما كان سلفنا كذلك ، كان الأعرابى ، السادج يعترض الرسول وهو على ناقته يطلب منه أن يعلمه الإسلام ويمسك برمام الباقة حتى يسمع .. ويخذه الرسول الملهم بما عنده ، فيصنع منه إنسانا حديدا عامر القلب بأعحاد الألوهية وأصواء الوحداية ، والرغبة الهائلة فى تطويع الكون كله لمراد الله ، فلا ترى هذا الأعرابى بعد ذلك إلا قذيفة تدك عروش المستبدين فى فارس ، أو الرومان ، وتراه هو وإخوانه ينطلقون شرقا صوب المحيط الهادى وعربا صوب الأطلسى لهم جوار تسبيح الله وتحميده ، وتلاوة الكتاب الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور . .

إننا بحاجة إلى ثقافة تصنع نفوسا على هذا النحو ، إنها الثقافة التى صغت أمتنا أولا والثى تنفذها أحيرا !!

أعرف أن هناك من يقول : هذا صوت متعصب شاذ يرجع بالعالم إلى حقبة من الزمان نقة منها ! وأسارع إلى القول بأني لست شاذاً إذ أرسل هذه الصيحة فقد أرسلها من قبل « مستر ريجان » عندما رشح نفسه رئيساً للولايات المتحدة في المرة الأولى وفي المرة الثانية ، والرجل نصراني متعصب لدينه ، وهو يحترم الكنيسة ويوقر تعاليمها ويدعو إلى جعل التعليم الديني جزءاً من مناهج الدراسة في المراحل الأولى .. وقد أُنذِر في ترشيحة الأول بأنه على استعداد لشح حرب صليبية لترجيح كفة المبادئ التي يعتنقها ... أما في حملته الانتخابية الثانية فهو يكرر نفسه بقوة .

نشرت الأهرام للأستاذ أحمد بهاء الدين (٨ - ٩ - ١٩٨٤) تقريراً يقتطف منه هذه العبارات « ... لكن رونالد ريجان يخوض حملته الانتخابية الآن في أمريكا رافعاً الإنجيل ، قائلاً بالحرف الواحد — كما سمعته من التليفزيون : إن في هذا الكتاب حل مشاكل البشرية .. !! ويستتلي مستر ريجان معلقاً على مبدأ فصل الدين عن الدولة قائلاً : « إنه آن الأوان لإلغاء هذا الفصل وإعادة الدين إلى الدولة » .

وسواء عادت الدولة في أوروبا وأمريكا إلى الدين رسمياً أو لم تعلن هذه العودة ، فهي تأخذ بها في مظاهرة إسرائيل ضد العرب ، وخذلان كل بادرة لظهور الإسلام ، أو وحدة شعوبه ، أو إحياء شرائعه ، وهي توحى لسماسرتها في الشرق الإسلامي كي يضربوا الإسلام وحده !

أى أن الوحدة اليهودية حلال ، والوحدة النصرانية حلال ، أما الحرام فهو الوحدة الإسلامية !

هذه حصيلة من الأنباء التي تجمعت لدى حلال أيام معدودات أسوقها مجردة ليرى القارئ المسلم فيها رأيه . في صحيفة كويتية عنوان كبير على ثلاثة أعمدة يقول : « ريجان يلحاً إلى آيات من الإنجيل للدفاع عن النفقات الحربية ! طالباً مساعدة الكونغرس لتغيير محرى التاريخ » . وقبلها بأسبوع سمعت من صوت أميركا حر دهاب كاهن يهودى إلى البيت الأبيض ليبارك الرئيس في فترة رياسته الجديدة ! وتجاوزت ذلك كله وأنا أقول : لاجديد أو لا عجب !

بيد أنى توقفت عند بآ آخر خلاصته أن إسرائيل تريد تهجير المسلمين من حبوب لبنان ، وإحلال الموارنة مكانهم حتى تطمئن إلى استقرار الأمن على حدودها الشمالية ، فإن مواقف الكتائبين في دعم اليهود وكره العرب واضحة ! وهززت رأسى

وقلت : لاجديد أو لا. عجب .. وفاجأني خبر آخر ، أن الحكومة الشيوعية في الحبشة تحرم التأثيرين عليها من الغوث العالمى لمنكوى الجفاف وتطاردهم إلى حيث يهلكون ! ولما كان جمهور الثوار من المسلمين ، فقد أحسست الألم لما يلقاه هؤلاء البائسون من شتات وضياح ثم قلت : لا جديد لا عجب ! سمعت حبرا آخر أفرغنى وآذانى ، أن نحو مائتى مسلم في بلغاريا قتلوا وهم يقاومون أوامر صدرت بتحريم الختان ، وتحريم الذبح في عيد الأضحى ، وتغيير الأسماء ذات الدلالة الإسلامية إلى أسماء أخرى ! إن الجرح الجديد حرك الجراح القديمة ، فصحت : أما تنتهى هذه الآلام التى يتعرض لها إخوان العقيدة في كل مكان ؟ وانتظرت أن أقرأ تعقيبا ، أو تعليقا على ما حدث فإذا الصمت الحبان ، أو الجهل المتبلد يسيطران على السنة وأقلام كثيرة ! إن الانتماء الإسلامى وحده أمسى رجعية عند بعض الساسة ! ذلك على حين يتحرك الإعلام العالمى كله إذا أخرج يهودى في روسيا ، ويشند الهياج لإهدار حقوق الإنسان ! ترى من ألوم ؟ هل أمنا الإسلامية نائمة ؟ أم مغمى عليها ؟ إن خصومها يعربدون دون وجل ! فليس هناك ما يخاف .

وبعد هذه الحقائق العارية يقول السفهاء من الناس عنا : إننا متعصبون ، لأننا نحسن ألف مليون مسلم من الذوبان والضياع .

والفقه الذى يرشح أصحابه لخدمة الوحدة الإسلامية يحتاج إلى إضافات واجتهادات جديدة يستحيل أن تعجز عنها أصول الفقه عندنا .

إننا بلغنا الآن أكثر من ألف مليون سمة ، وهذا العالم الإسلامى الرحب الموارد تلاسسه أوضاع اقتصادية وسياسية واجتماعية بالغة التعقيد ، وهو يحتاج إلى فقه إدارى ودستورى ودولى حس التقدير لمعاش المسلمين ومعادهم على سواء ، ذكى الصلة بالعوالم غير الإسلامية التى تشاركنا الحياة على ظهر الأرض ..

وقد تحدث العلماء القدامى فى السياسة الشرعية ، والتراتب الإدارية بيد أن حديثهم كان قليلا ، ويبدو أنهم أوحزوا حتى لا يصطدموا بالساسة ، ويتعوضوا للمحن ...

ومع إيجازهم فقد وقفوا عند حاجات عصرهم ، وقد مضت قرون طويلة ، وهذا الضرب من ثقافتنا الإسلامية لا يعدو وحاجات المسلمين حتى القرن السابع الهجرى ، فهل

ينشط الفقهاء المسلمون ليجعلوا التشريعات الإدارية والدستورية والدولية مناسبة لمطالع القرن الخامس عشر الذى احتفلنا بمقدمه من بضع سنين ؟

إن الألف مليون مسلم يتعرضون لامتحانات عالمية قاسية ، بعضهم يدور فى فلك . « الكومنولث » البريطانى ، وبعضهم يذوب فى فلك الاتحاد السوفيتى ، وبعضهم يلهث ليلتحق بالسوق الأوربية المشتركة ، وبعضهم يؤثر القومية الإفريقية ! لعل هذه القومية الإفريقية أعرق وأسمى من الجامعة الإسلامية !!! وهذه دول تنقل دستورها من شرق أوربا ، وهذه دول أخرى تنقله من غرب أوربا ...

والفقه الإسلامى واقف طوعا أو كرها فى مكانه العتيق لا يقدم البدائل المطلوبة ، وإذا كان بعض الساسة القاصرين يعترضن هذا النمو الثقافى الحتم فهل نتنظر حتى تطوينا ردة العلمانية الحديثة ؟

وهناك قضية تثار أمام الوحدة الإسلامية ، تبدو للوهلة الأولى كأنها مشكلة ، وبعد التأمل الجاد تتكشف عن مهزلة أى مهزلة ! أعنى قضية الأقليات التى إفتعلها الاستعمار افتعالا يشف عن مكره السيىء بالإسلام وأمته .

وهاكم نماذج لما يقع ، توجد فى السودان الجنوبي قلة نصرانية من آثار التبشير الذى انفرد بالمنطقة عشرات السنين ، هذه القلة تبلغ ١٥٪ من سكان الجنوب ، ومع أن معهم مسلمين يبلعون هذه النسبة فإن المخطط الاستعمارى يريد إنشاء دولة مسيحية هناك ، ترغب المسلمين المساوين لهم على الارتداد أو الفرار ، وتنفرد ببقية الوثنيين ، وتعاون مع الصليبية العالمية على بلوغ أهدافها فى تنصير القارة القديمة ..

وقد أحبرنى أحد موظفى الرى المصرين أنه عند إجراء إحصاء هاك أثبتت طلبه أحد مكاتب تحفيظ القرآن الكريم على أنهم نصارى ، وأضيفت عليهم أسماء أجنبية ... !

ولقد عرى الرئيس جعفر النميرى نفسه المؤامرة على جنوب السودان فى كلمته لأعضاء المؤتمر الإسلامى الأول .. قال الرئيس :

« ستسألون على وجه اليقين عن مشكلة الجنوب ، ستسمعون كذبا كثيرا وافتراء وأساطير يسجونها حول الجنوب . الجنوب الذى زرعه الاستعمار قنابل وقت انفجارها وحدد آثار الانفجار وحسب بدقة نتائجه . وأستاذكم لأحدثكم عن

الجنوب قبل مائة عام وأكثر كيف كان موقع القلب من السودان الموحد في قمة الثورة المهدية الإسلامية ، وأنقل لكم هذه الفقرة من صفحة ١٦٣ من كتابي « النهج الإسلامي لماذا »

— الجنوب : عذاب التاريخ وهو يتراجع وما أقسى تراجع التاريخ . المهدي العظيم يقاتل البغي ويطارد الاستعمار يشعل ثورة السودان القومية العظمى . بحر الغزال تسانده ، بحر الغزال تنايعه . الديكا والنوير تطرد لتون قائد الحامية ، وتستقبل قائد المهدي كرم الله شيخ محمد كركساوي ليرفع راية المهدية رمز وحدة السودان فوق ربوع بحر الغزال .

سفاين المهدية تتقدم إلى مديرية حط الاستواء . قبائل المديرية تتقدمها تحكم الحصار حول الحاميات . تتساقط وتستسلم لينسحب دكتور أمين حاكم المديرية ويرفع عمر صالح مبعوث المهدي راية الوحدة القومية لتستظل بها مديرية حط الاستواء .
جاء الاستعمار أيها الإخوة والسودان بلد واحد وشعب واحد . الإسلام دينه ، والوحدة شعاره ، والاتفاق ديدنه لا عدو له إلا الاستعمار ، ولا هدف له إلا القضاء عليه ، فبدأ المستعمر في تخطيط جريته الكبرى ضد الإنسانية .

فرض على أبناء الجنوب تغيير أسمائهم إلى أسماء كنسية . يوسف أصبح جوزيف وجمعه أصبح قاما وشول ودينق وماجوك وماكيج وأوان أضافوا إليها أو غيروها إلى وليم وجون وبيتر . طمسوا معالم الجنوب الأصلية . لم يكتفوا بمحاولة فصله من الشمال بل انتزعوه من ذاتيته الفطرية الطيبة . وفي عام ١٩٢٢ بدأ الاستعمار في تخطيط سياسة الجنوب التي استمرت حتى ١٩٤٦ فأقفلوا الجنوب في وحه ابن الشمال الشقيق وسارت عملية تنصير الجنوب وإشعال الفتنة فيه سيراً حثيثاً ليفجر اللغم في سنة ١٩٥٥ . »

— هذا ما حدث في السودان ، وما عرّاه الرئيس النجدي نفسه !!

وفي لبنان يريد الموارنة وهم أقل من خمس السكان إقامة دولة مارونية ذات طابع مسيحي يخضع لها سائر الطوائف وجمهورتهم من المسلمين ، والمفاوضات تجري لكي يقنعوا بنصف السلطة ولكنهم يرفضون !

وقد ساع تزوير الإحصاءات في أقطار كثيرة يبدو النصارى أضعاف عددهم من الناحية المادية ، وأضعاف ذلك من الناحية الثقافية ، وبذلك يتم دفن المسلمين في

استرسالهم الغافل ، ثم يقال لكل يقظة إسلامية إن الجماهير الكثيفة من النصارى ،
تأبى الإسلام وشريعته ووحدته !!

والدين يأبون ذلك نفر لا يزيدون عن ٦٪ من تعداد السكان في أكثر البلاد
العربية ، فكيف بغيرها ؟؟

إنه أمر يدعو للحيرة ، ولكنهم قالوا : إن القانون لا يحمي المعفلين ! ومن خيرى
على أكلك بمجوع حين يلقاك ومن أمثلة العرب الأقدمين ، إستنوق الحمل ! ، وإن
العات بأرضنا يستسر !!

وقد لاحظنا أن المعاهدات الثقافية تعقد في هذا العصر لدعم المبادئ والآداب
واللغات الأجنبية .

وتكاد القارة الإفريقية تكون مقسومة بين الدول الناطقة بالفرنسية ، والناطقة
بالإنجليزية ..

فما وضع اللغة العربية في قارة أغلب سكانها مسلمون ؟ إن لغة الوحي هي
الدعامة الكبرى للوحدة الإسلامية ، ومع موت هذه اللغة سيموت التعليم والتفاهم
والرباط الأدبي المشترك وستنشأ أحيال منكرة لثقافتها وتقاليدها ، بل عاداتها
وشعائرها ...

ومن أجل ذلك يجب أن نقاتل دون اللغة العربية وألا نأذن أبداً بدحرجتها لتكون
لغة ثانية ،، ثم ثالثة ثم لغة ميتة ... يتم بعدها تكفين الكتاب والسنة ... !!

إن الناس من حولنا يتجمعون على عقائدهم ويتنادون بشعاراتها ...
وإذا سمحنا لأسباب الفرقة أن تنال منا ، فلا مستقبل لنا ، لأننا لن نكون ...

* * *

الفهرس

مقدمة	٥
أيس الخلل..؟	٧
بعض سنن الله الكونية من القرآن	١٠
تسلل آخر فى الميدان الإجتماعى	١٨
أثر الأهواء والعصبية على الدعوة الإسلامية	٣١
قصور الحكم وأثره فى الإضطراب العلمى	٤١
العلم المغشوش يهز الأمة ويخدم الإستعمار	٥٢
حد أدنى لثقافة المسلم	٦٤
مرتبة أخرى من المعرفة الدينية	٧٨
جيل يذهب ضحية العجز والغدر	٨٥
إنهم يتعصبون ضدنا.. فهل نتراخى؟!	١٠٥
أحوال اليوم وآمال الغد	١١٩
لوحة الإسلامية طريق طويل لكنه ضرورة حياة..؟	١٢٤
لفهرس	١٣٣

عقيرته	١٨	١٢٤	شيه	١٠	٩٧
سهمهم	١	١٢٥	مرات	٢٢	٩٧
بذمتهم	١٦	١٢٦	لقبض	٢٢	١٠٢
إن	٢٠	١٢٦	النصرانية	١٦	١٠٥
تنقدها	الأحير	١٢٧	الطبعة	١٢	١٠٨
وتتعرضوا	٢٣	١٢٩	نادى	قل الأخير	١٢٠
يعترضون	٩	١٣٠	شئ	١٣	١٢٣
البعاث	٧	١٣٢	تعلمه	١٣	١٢٣
			اقتياد	١٠	١٢٤

رقم الإيداع ١٩٨٥/٣٦٤٤
الترقيم الدولي ٧-١٥-١٤٣٠-٩٧٧

دار الصحوة
بحوار عمارات المهندسين
مدينة الهدى - حدائق حلوان - القاهرة
ت : ٦٨٨٠٧١

تم الطبع
بمطابع العدالة للأوفست
٣١٨٤٣٣٢

وقالوا : الفقه الإسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى ! وقال أولو الألباب : إن تشريعا يحث على إنظار المعسر والتجاوز عن الدين لا يؤخذ من تشريع يقضى باسترقاق المعسر وقد يأمر بقتله ! وشتان بين المسئولية فى الإسلام والمسئولية عند الرومان ..

ذاك من ناحية الكيف أما من ناحية المساحة الاجتماعية فالقول بأن الفقه الإسلامى مستمد من الفقه الرومى كالقول بأن سهر النيل ينبع من بئر حفرها جندى رومانى فى بلاد النوبة ليستقى منها هو وجواده !

إن البواعث على إهانة الإسلام وتصغير رسالته وتحقير أمته وإنكار ما تركته فى الدنيا من دوى ، وما خلفته فى العالم من رقى لاسناد لها إلا كره أعمى .

قال الأستاذ رجاء جارودى : فى رده على الاتهامات السابقة التى ألحنا إليها : قبل كل شئ ننفى الزعم بأن الفكر الإسلامى . مجرد مترجم ، أو ناقل عن الفكر اليونانى ، إن هذا قول لا أساس له من الصحة :

١ - فالرياضيات اليونانية تعتمد على مفهوم النهائى فى حين أن الرياضيات العربية تعتمد على مفهوم اللانهائى .

ب - كان المنطق اليونانى نظريا فى حين أن العلم العربى تجريبى أساسا .

ج - كانت الهندسة المعمارية اليونانية « استاتيكية » تعتمد على الخط المستقيم أما هندسة المساجد فإنها على عكس المعبد اليونانى « سمفونية » من المنحنيات بأقواسها وقبابها .

د - كانت الفلسفة اليونانية من « برمنيدس » إلى « أرسطو » فلسفة وجود ، أما الفلسفة العربية فهى فلسفة الوجود والفعل ، ثم هى تعتمد أصلا على نبوة أى على الوحي فلها مصدر علمى آخر غير المصادر المادية للمعرفة ، التى لا يعرف اليونانيون غيرها .

هـ - المأساة اليونانية - بما فيها من شذوذ وعقد - لا يمكن تصورها فى النظرة الإسلامية للحياة ، بل إن الأدب العربى يستنكر التصور اليونانى للحياة كما وكيفا .

(٢) ليس صحيحاً أن العلم العربى علم بدائى إذا قيس بالعلم المعاصر ، إن العلم العربى على عكس مفهومنا الوضعى لايفصل بين العلم والحكمة أى أنه لايفعل أبداً المعنى والغاية !

إن القرآن ترك آثاراً عميقة فى الفكر الإنسانى تجعل المؤمن يرى آيات الله فى كل شئ ، تجعله يبصر أبعاد الألوهية فى آفاق الكون ، والسنن العامة التى تحكمه ، ومن ثم فهو يحتبس عند الظواهر الملحوظة ، بل يرى فى كل شئ «إشارة ورمزاً» يعنى إلى ربه بدهاء !!

فآيات الله فى صحائف الكون تتلاقى مع آيات الله فى صحائف الوحي تلاقياً يجعل النظرة إلى الكون أسمى ، وهذا العقل المؤمن لايعجز عن تحليل الروابط التى تصل الأشياء بعضها ببعض ، والتى تقود إلى القوانين العلمية الشائعة فى الوجود ، وإنما يمتاز العلم المتدين بأنه يضيف على هذه القوانين معنى أشرف .

ومن ثم يقول رجاء جارودى : إنها قوانين دنيوية ، بالنظر إلى العلاقات التى تسودها ! بيد أنها دنيوية رفيعة القدر عندما نلاحظ صلتها بالخالق ..

إن الغرب نسي الجانب الإلهى فى دراسته للكون والحياة ، فماذا كسب من مبدأ « العلم للعلم » ؟ لا شئ ! أمسى التطور الكمى للعلم والحضارة الصناعية هدفاً مقصوداً لذاته ، يوشك أن يتحول إلى بلاء على أصحابه ، والخاسر فى هذا العلم المتمرد هو الإنسان فى كل مكان !

ويمضى المحاضر العظيم فيقول : « إن نهضة الغرب لم تبدأ فى إيطاليا مع إحياء الثقافة اليونانية الرومانية ! بل بدأت فى أسبانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية ! لكن هذه النهضة الغربية لم تأخذ من العلوم العربية الإسلامية سوى منهجها التجريبي و « تقنياتها » وتركت جانباً الإيمان الذى يوجهها نحو الله ويسخرها لخدمة البشر ... !

ونقتطف هذا الجزء من محاضرة جارودى — وهو قليل من الكلم الطيب الذى أورده — يقول : « إننا نشهد اليوم ما كنا نشهده على عهد النبوة ، فعندما بدأ الرسول دعوته ، كانت هناك دولتان عظيمتان ، نال منهما التدهور ، تتجاهان فى

عداوة حادة ، هما الإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الساسانية ، واليوم نشهد دولتين كبيرتين تتنازعان على تقسيم العالم ، وتمتل كل منهما مذهماً يحيل إلينا أنه يعارض الآخر ! والحقيقة أنهما نتاج واحد للفلسفة المادية الفرعونية المستكبرة ، وأنهما يؤديان إلى ذات الطريق المسدود ، ومنتهيان حتماً إلى إفلاس الشرية .

ويقول : في هذه الظروف المتميزة بأزمة الغايات أو بانعدام هدف ديبى واضح يربط الإنسانية بالله على نحو مكتمل ، يمكن للإسلام أن يقدم للعالم الشيء الذى يفتقر إليه ، ويكاد يهلك ، لأنه لا يحده ، يمكن للإسلام أن يقدم التوحيد ، يقدم للحياة معناها النصير ، يقدم النور والجمال لعالم يوشك أن يحتويه ليل مظلم بالغ الدمامة ...

ثم ينتهى جارودى إلى القول للمسلمين : إن الوفاء للأجداد لا يتمثل فى الحفاظ على رفاتهم ، ولكنه فى العمل على تبليغ الشعلة ...!!!

وذهب الرجل ليلقى علماء الخليج—وكنت يومئذ فى دولة قطر—وتتبع أنباءه ، وهو بين حل وترحال ، وسمعت أحد الناس يقول : إن بعضهم وصفوه بأنه صوفى متدع...! [مساكين لا يدرون شيئاً...!!]

وولّى الرجل وجهه سطر القاهرة ! وقلت فى نفسى : لن يلقى هناك محمد عبده ، لن يلقى هناك حسن البنا ! من سيلقى الرجل هناك ؟ بقايا سدنة « مجمع الأديان » الذى أوعزت به الصليبية العالمية ثم دفن فى وادى الراحة بأرض سيناء ؟ وأصدر علام شيوعى كتاباً عن ردّة « جارودى » فقلت : التقى الدهاء من الكفار بالأغبياء من المؤمنين على مهاجمة رجل عظيم...

إن مأساة العلم الدينى لا بد من شرحها ، فالقدر المطلوب لتكوين عقل مؤمن وضمير طهور من موارثنا التقليدية لم نحسن تحديده بل لم نحاول تحديده...

والاسحار فى المعرفة الدينية هو عند الكثيرين استكثار من عملة فقدت قيمها ، لأنها حوار مع الموتى مصت عليه قرون !!

العلم المغشوش يهز الأمة ويخدم الاستعمار

الصحوة الإسلامية المعاصرة مهددة من أعداء كثيرين ، والغريب أن أخطر خصومها نوع من الفكر الدينى يلبس ثوب السلفية ، وهو أبعد الناس عن السلف^(٣٤) ..إما ادّعاء السلفية وليست السلفية الصحيحة !!

إن حب السلف دين وكرههم نفاق ! إنهم دعائم حضارتنا ، ومعالم رسالتنا ، من أجل ذلك يجب أن نحسن التأسي بهم ، وأن ندفع عنهم كل ما يؤذى سمعتهم ! كنت يوما أتحدث فى موضوع غير ذى بال ، وفى المجلس رحل موصوف بالسلفية ، وجرت على لسانى كلمة موهمة لم أقصد إلى شىء بها ! وتلفت فإذا الرجل يحسب فى نفسه مسار فكرى ، ويقدر أنى سأتورط فى كذا وكذا ، وكشّر عن أنيابه واستعد للفتك !! غير أن الحديث انعرج إلى ناحية أخرى ، وشعرت بأن الرجل آسف لأنى أفلتت منه .

قلت له : فلان ! قال : ما تريد ؟ قلت : رأيك متحفزا للنزال ، ثم كفى الله المؤمنين القتال ... قال : نعم ، حسبك ستقول مالا أوافق عليه ...

قلت : إنكم تتربصون بالخطأ ، لتأكلوا صاحبه ، فإذا فاتكم شعرتم بالخرن ، ليست هذه يا صاحبي خلائق المؤمنين ! إنكم تجمعون جملة من صفات العباد والتحدى والحقد وتلمس العيب للبرآء ، وهذا كله مرفوض فى ديننا ...

قال : نحن نافع عن السنن ونحارب المحدثات والناس تأبى إلا الابتداع ، وما يرموننا به باطل ...

قلت : ليت الأمر يكون كذلك ، إنكم تهاجمون المذاهب الفقهية ، وتخدشون أقدار الأئمة ، وتتركون انقسامات عميقة بين الناس باسم السلفية ، والعلم

(٣٤) السلفية تعنى العودة إلى عقيدة السلف وأخلاقهم السمحة الكريمة ، وليست الدعوة بواسطة التصيّد والحقد !! .

الصحيح لا يأخذ هذا المنهج ..

قال : نحن نرفض التقليد المذهبي ، ونعلم الناس الأخذ المباشر من الكتاب والسنة أتأبى أنت ذلك ؟

قلت : لا يأبى مسلم الارتباط بكتاب ربه وسنة نبيه وتصوركم أن الفقه المذهبي يستقى من نبع آخر غير الكتاب والسنة غير صحيح .. ومن الممكن للعلماء الراسخين أن يناقشوا بعض القضايا ، ويعرفوا ما جاء فيها من آثار ، ويستسطروا ما يطمئنون إليه من أحكام ، وذلك كله في إطار من الإخاء والحب وإيثار الحق على الخلق ..

والفقهاء الأربعة الكبار ، نماذج رفيعة لاحترام الكتاب والسنة ، ولا يلام مسلم تبع واحدا منهم ، كما لا تلامون أنتم في اتباع الشوكاني أو الألباني أو الصنعاني الخ

قال : ذاك ما نقول ! قلت له : لا ، إنكم ترون رأيكم - الذي تابعتم فيه أحد الناس - هو الحق وحده ، ثم تشنون هجوما على من خالفه بوصفه حارحا على السنة !! كأن السنة وقف عليكم أنتم لا غير !

أحب أن تعلموا أن الاجتهاد الفقهي خطأه وصوابه مأجور ، وأن الأمر لا يتحمل عداوة وفرقة ! ولو سلمنا أن ما لديكم هو الصواب ، فمخالفكم ما حُرِّمَ ثواب الله ! فلماذا تريدون إحراجه ، وإخراجه من دائرة السلف ، لتبقى حكراً عليكم ؟

الرأي عندي أن المأساة (خُلُقِيَّة) ، لاعلمية ، وأولى بكم أن تتواضعوا لله ، وتصلحوا نيتكم معه ، وتتطامنوا لإخوانكم المؤمنين ، وتحسوا الظن بهم ..

إذا اقتنعتم برأي فمن حق غيركم أن يقتنع بضدّه ، ولا مكان لحرب ولا ضرب ، والخلاف الفقهي لا حرج منه ، أما الإلثم ففي التعصب المذهبي الضيق ! والعالم الإسلامي رحب ، والمذهب الذي يضيق به قطر يتسع له آخر ، والذي ينبو عنه عصر تتسع له عصور أخرى ..

إن زعيم السلفية الأسبق في مصر الشيخ حامد الفقى حلف بالله أن أبا حنيفة

كافر ، ولا يزال رجال ممن سمعوا اليمين الفاجرة أحياء ، وقد نددت أنا في كتاب لي بمحاضرة أُلقيت في حي الزيتون بالقاهرة تحت عنوان «أبو حامد الغزالي الكافر» والمكان الذى قيلت هو مقر السلفية !! والطلبة السلفيون في جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر- يقولون عن مالك بن أنس : إنه يفضل عمل أهل المدينة على حديث رسول الله ، قلت لهم : هذا كذب ، إن مالكا رضى الله عنه يرى عمل أهل المدينة أدل على سنة رسول الله من حديث واحد قد يحفظ أو ينسى ، قد يخطئ أو يصيب.!!

هذا التفكير المريض المتحامل لنتيجة له ؛ إلا تمزق الأمة المشخنة بالجراح ، والزعم بأنه سلفى لون من الدجل والجراء ..

وقد لاحظت ثلاث ثمار مرة لهذا العلم المغشوش ، الأولى أن بعض الطلاب الذين لا يحسنون إعراب جملة يقولون عن الأئمة المتبوعين : هم رجال ونحن رجال ! قلت : إن الشعب الإنكليزى لا يتناول رئيسه «تاتشر» بهذا الأسلوب السمج ! ليت شعرى أين هذا السلوك من قول رسولنا ﷺ «ليس مامن لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه» !!

الثانية أن نفراً من العمال والفلاحين فرطوا في أعمالهم الحرفية ، وأو الفسية ، مكتفين في إثبات تدنيهم بثوب قصير ، ولحية مشوشة ، وحمل عصا حيا ، أو ارتداء عمامة ذات ذنب عندما تكون «المشيخة» قد ثبتت لصاحبها ...!

أما الملاحظة الثالثة ، وخطرها شديد فإن عملاء روسيا وأمريكا أيقاظ في محاربة الإسلام ، مهرة في إطفاء صحوته الجديدة ! وهم يجتهدون في إبرار الجماعات المتطرفة والتغاضى عن نشاطها لأنها وحه دميم للإسلام ودعاية حقيقية ضده ، وهدم للوحدة ، وتسحيل للفرقة !

من أجل ذلك يحاربون الفكر المعتدل ، أو الإسلام الصحيح ، ويطاردون أتباعه ، على حين يترك هؤلاء الغلاة يثيرون الشبه ، ويشعلون حروبا داخلية تقضى على الإسلام ومستقبله .. وذاك سر انتشارهم في آسيا وإفريقية !
لأنهم لو نجحوا-قضوا على الإسلام في مهده بقصورهم العقلى ، فليتركوا لتحقيق ذلك !!

ونتجاوز حكاية فقه الفروع إلى حكاية أخرى أدهى ! كنت أقرر أن أحاديث الآحاد يعمل بها في الأحكام الشرعية القائمة على العلم الظنى أو الظن الراجع .. فسأل طالب : هل يبنى على الظن عمل ؟ قلت : تدبر قوله تعالى ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ (٣٥)

إن أحوال الناس ومسالكتهم تبنى غالباً على ما يترجح لديهم من أحكام ، وأحاديث الآحاد ثبتت في الدماء والأموال والأعراض على هذا الأساس ...
أما أصول الاعتقاد ، وأركان الإسلام فتستمد من نص قطعى الدلالة ، قطعى الثبوت ، وهذا ما عليه جمهور الأئمة .. قال الطالب : وهو سلفى كما ظهر لى-حديث الآحاد مصدر للاعتقاد !

قلت-محاولاً الاختصار-ليس في ديننا عقائد تقوم على حديث آحاد ! عقائدنا كلها ثابتة بأدلة قاطعة ، ولاداعى للجدال ! قال الطالب : عقيدة القدم ثبتت بحديث آحاد ! فرددت كلمة الطالب بضيق شديد ، وغازنى منه أن يستأنف كلامه قائلاً : وفي رواية أخرى ذكرت كلمة رجل بدل كلمة قدم

قلت : تعنون أن ثبت أن لله رجلاً ؟ ونعم ذلك من عقائد الإسلام التى نلزم الناس بها ؟ قال : نعم ، وذلك رأى سلف الأمة .. !

قلت : ما أجركم على الافتراء ! إن سلف الأمة ما تدرى شيئاً عن هذه الرجل ، ولا سميع دأج إلى الإسلام يكلف الناس أن يؤمنوا بها ..

وأصل القصة وتفصيلها ذكره القرطبى على نحو واضح سليم .. فقد ورد في صحيح مسلم والبخارى والترمذى عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى» (٣٦) بعضها إلى بعض وتقول قَطُ قَطُ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فَضْلٌ حتى يُنشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فَضْلُ الجنة» لفظ مسلم . وفي رواية أخرى من حديث أبى هريرة : «وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجله يقول لها

(٣٥) سورة القرة ٢٣٠ .
(٣٦) يروى بعضها إلى بعض تنقص على من فيها ، وتشغل بدهام ، وتكف عن سؤال هل من مزيد

قَطَّ قَطَّ فهناك تمتلئ ويتزوى بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً. قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القدم هنا فهم قوم يُقَدِّمُهُمُ اللهُ إلى النار ، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار. وكذلك الرجل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ، يقال : رأيت رجلاً من الناس ورجلاً من جَرَادٍ

قال الشاعر :

فمَرَّ بنا رَجُلٌ من الناس وانزوى إليهم من الحىِّ اليمانيِّ رَجُلٌ
قبائل من لَحْمٍ وعُكْلٍ وجَنِيٍّ على آبنَى نِزارٍ بالعَدَاوةِ أُحْفَلُ

وبين هذا المعنى ما روى عن ابن مسعود أنه قال : ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مقمّع ولا تابوت إلا وعليه أسم صاحبه ، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذى قد عرف اسمه وصفته ، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطَّ قَطَّ حسناً ! أى أكتفينا أكتفينا ، وحينئذ تنزوى جهنم على من فيها وتطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرجل والقدم ، ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : «ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة». وقد راد (القرطبي) هذا المعنى بيانا في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله. وقال النضر بن شميل - كما ورد في القرطبي أيضاً - في معنى قوله عليه السلام : «حتى يضع الجبار فيها قدمه» أى من سبق في علمه أنه من أهل النار.

فأين القدم التى يمشى عليها في هذا السياق المبين ؟ إن العقائد لا تخرج ولا تفتعل على هذا النحو المضحك ! عقيدة رجل الله (!!) ما هذا ؟

قلت : إن أركان الإيمان تؤخذ من نص قطعى الثبوت أى متواتر ، قطعى الدلالة أى لا يحتمل معنى آخر ...

وإذا كان الأجناف يرون أن خير الواحد لا يثبت فريضة في الفروع العملية ؛ لأن الفرض عندهم يثبت بدليل قطعى لا شبهة فيه ، فكيف يتصور نحن إثباته لعقيدة يكفر منكرها ؟

ولكن الطالب السلفى قال : إن القرطبي أشعري المذهب وإنه أحد المفسرين الجانحين إلى التأويل ، وإنه يشبه الرازى والغزالي ، وإنهم جميعا مبتدعة لا يؤخذ الإسلام منهم ...

وعلمت أن الغلام مملوء بالجهالة ، وأنه - مثل غيره من أدعياء السلفية - لاتصلح الأرض معهم ولا بهم ...

الطريق لحل الخلاف في قضية التأويل :

وهنا أجدنى مسوقا إلى الكلام عن التأويل ، وتبيان الموقف الصحيح منه ... إن العقل الإنسانى فى عصرنا هذا عرف قدره ، وعرف أين يمتدّ وأين ينكمش ؟ ففى بحوث المادة انطلق لايلى على شىء ! أما فى ما وراء المادة ، فقد تراجع وأعلن أن هذا ليس ميدانه ...

والعقل الإسلامى عرف هذه الحقيقة لكن بعد ما داخ وكاد يهلك ! والدين اشتغلوا بالتأويل عندنا سبخوا طويلا فى البحر ثم لما أحسوا الغرق عرجوا على أقرب شاطئ فنجوا بأنفسهم ، ..

وقد تأملت مليا فى مواقف رجالنا قديما ، فما شعرت فى قلب أحدهم بسوء ، ولا رأيت أن أحدهم يخطر بباله النيل من أمجاد الألوهية ، أو الخط من عظمتها ! إن جمهورهم - فى خشوع وأدب - تشترك مع الكون المستبغ بحمد ربّه ، وتشترك مع الركع السجود فى التوبة والخضوع .

ربما أسف المعتزلة فى بعض عباراتهم ، وربما خدعهم الإعجاب بفكر اليونان حينئذ ، وأيا ما كان أمرهم فإن العقلاء أدانواهم فى تأليبهم الميليلة على أحمد بن حنبل ، وكان ذلك طاويا لرايتهم إلى الأبد ، فأنهوا بخيرهم وبشرهم ...

أما الأشاعرة فتزئيمهم لله واضح ، وثناؤهم عليه جميل ، وقد اقتصدوا فى التأويل ، وسلكوا مسلكا وسطا جعل جماهير المسلمين تنضم إليهم من ألف سنة إلى اليوم

ولك أن تقول : ' ما قيمة هذا الاقتصاد ، ونحن ' منيون ' عن التأويل نجلة وتفصيلا ؟

ونحجب : إن المتكلمين من سلف وخلف اضطروا إلى التأويل في بعض جمل من الكتاب الكريم-والسنة كذلك-توفيقا بينها وبين الآيات الأخرى ، وتمشيا مع حكم العقل في إثبات الكمال كله لله تبارك اسمه ، ونفى أى إيهام بما لا يليق !
تدر قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣٧) لقد قال المفسرون : المعية هنا معية صفات ، لامعية ذات ، فهو معنا بعلمه وسمعه وبصره وقدرته وحكمته ورحمته .. الخ أما معية الدات فتقتضى الحلول وهو باطل ...
وعلى ضوء هذا فسروا قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٣٨) وقوله أيضا ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣٩) ... قالو : نحن أى ملائكتنا ...!

فإذا استحق الأشعري لوما ، لأنه أول آيات ومرويات ابتغاء تربيته الله تبارك وتعالى فعيرده لذلك ملوم ولا معنى لهش الرجل وحده بالأسلوب المسعور الذى نراه الآن !!

هل يعنى ذلك أننا مع الأشعري في منهجه ؟ الحق أنى مع السلف الأول من صحابة رسول الله ، ومع دولة الخلافة الراشدة ، التى لم تفتح بابا لهذه البحوث !
وانظر إلى ابن تيمية والأشعري على أحما سواء فى الإيمان الصحيح ، والغيرة على الإسلام

وما يأخذه الكاشحون على أى الحس ، يؤخذ مثله على ابن تيمية عندما يتوقف فى نفى الجسمية عن الله فلا يثبت ولا ينفى ، وهذا خطأ ، وكان ينبغى أن يلتزم بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٤٠) فيجزم بالنفى ! كما يؤخذ عليه أيضا نفيه للمجاز فى القرآن وفى اللغة العربية كلها ، إن علماء اللغة وأدباءها وشعراءها يبتسمون من هذا النفى الغريب

ولكن هذه الهنات لاتنال من قدر إمام شامخ كبير العقل راسخ اليقين شديد البلاء ، فى نصرة الإسلام ، ورد أعدائه ..

وواجبنا فى هذا العصر ألا نجد العراك بين الموقى ، وألا نحتزّ الخلافات

(٣٩) سورة الواقعة ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

(٣٧) سورة الحديد ٤

(٤٠) سورة الشورى ١١

(٣٨) سورة ق ١٦ .

القديمة^(٤١) ، لنقطع بها أرحام المؤمنين في هذه الأيام النحسات التي أحرق فيها أعداء الإسلام حول داره ، يريدون هدمها ...

إذا كان المثل يقول «لا تجعل سحب الغد تغطي شمس اليوم» فأولى بنا أن نقول : «لا تجعل غيوم الماضي تغطي شمس الحاضر» !!

ماذا يكسبه السلفيون من شتم الأشعرى والرازي والغزالي والقرطبي وبقية علماء المسلمين؟؟ طول عشرة قرون !! أليس الأولى بهم أن يدركوا شؤم الخلاف ويجنبوا الأمة بلاءه الآن ..؟

كنا في الجامع الأزهر ونحن طلاب صغار نعرض رأيي السلف والخلف ، وندرس مواقف الجانبين ، دون حساسيات ، وقد ألفت كتابي «عقيدة المسلم» مؤثراً مذهب السلف لاقتناعي بعجز العقل البشري عن اكتناه الغيبات ...

بيد أني ما فكرت في تأليف فرقة لشتم الأشعرى وسائر الخلف ، وشغل المسلمين بمحاربة الموق ، وإلقاء محاضرة في تكفير الغزالي باسم السلف !!

إن أبا حامد غفر الله له مؤلّه القلب بحبّ الله ، حارّ الكلمات في مدحه وحمده ، واقتياد الناس إليه ، وتحبيب ذكره إلى نفوسهم !

وما يحكم بكفره مسلم ! فكيف يفعل ذلك منتسب إلى السلف ؟

وأعود إلى قضية التأويل لأسجل بعض مشاعر نفسية وعقلية مرت بخاطري

لقد كتبت قبل ذلك أن اللغات من وضع البشر يعبرون بها عما ألفوا من أشخاص وأشياء وأفكار في عالمهم المأنوس لهم ، وأن هذه اللغات أعجز عن تصوير أبعاد الألوهية ، وآفاق الكمال الأعلى ، وأن الوحي الإلهي عندما يخاطب الناس فهو يُقَرِّب إليهم بالفاظهم ما يناسب أفهامهم ...

كنت ذات يوم جالسا مستغرقا في تفكير عميق ، فلمحت ذبابة تطير قريبا مني ! فتساءلت : أعرف هذه الذبابة ما يدور برأسي ؟ بداهة لا ! إنها دون ذلك كثيرا كثيرا ! قلت : إن عباقرة الجنس البشري ، لو تسلسل تفكيرهم يُمَدّ بعضه بعضا ليعرفوا طرفاً من حقيقة الذات العليا ؛ لكانوا أعجز من هذه

(٤١) هذا هو الهدف من الرأي الذي أبدية ، مع أني — كما ذكرت — على عقيدة السلف الصالح والحمد لله

الذباة ... إن شأن الألوهية أجل وأسنى !!

وتساءلت : كم أشغل أنا من مساحة أو من حيِّز على ظهر الأرض ؟ أشبار معدودات في عدة أشبار ! وتضاءلت في نفسى شيئاً ما ، ثم ازداد تضاولي وأنا أقول : إن الأرض كلها تأخذ من مساحة الكون الكبير أقل من الحيِّز الذي آخذه أنا منها ! إنها داخل الملكوت الفخم تشبه الهباءة التي ترتعش في شعاع من الشمس

لو فئت هذه الأرض بمن فيها وما فيها ، ما نقص الكون شيئاً طائلاً ، ولو فنى الكون كله ما ضار المجد الإلهي شيئاً !

وتسلل إلى قلبي إحساس بالرهبة ، وأنا أتدبر قول ذى الجبروت والعظمة-مهتداً من أشركوا به- ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعاً^(٤٢)﴾ ؟ لأحد ! إن الملائكة والمرسلين ومن دونهم فقراء إلى الله ، وهو غنى عن العالمين ..

وتذكرت أنى أنفَس بلا تفكير ! نعم كم شهيقاً وكم زفيراً في كل دقيقة ؟ عشرات المرات ! والعمر مربوط بهذه الأنفاس ، فلو توقفت فاضت الروح ! خمسة مليارات من البشر يتنفسون ، وأضعاف أضعاف هؤلاء من الطيور ، والزواحف ، والدواب الهائمة والسائمة والعائمة.

من يبيء لأولئك كلهم الهواء الصالح لهم ؟ قال العلم : يحتاج الأحياء إلى الأوكسيجين ، ويحتاج النبات إلى الكربون ، ويتم تبادل بين النوعين ليأخذ كلاهما مايقويه !

ترى كيف يتم هذا التبادل ؟ وأين ؟ وكيف يتبع العلم الإلهي مسار كل زفير وشهيق في هذا الجو الرحب ، ليلبغ مداه ، ويتم دورته ، ويحقق نتيجته ؟؟؟

إننا معشر الإنس والجن-لانعرف إلا القليل عن عالمنا ، فكيف يدرك عالم الغيب من يجهل عالم الشهادة ؟ وكيف يحاول الغرور البشري اكتشاف الذات ، أو الصفات العليا ؟

(٤٢) سورة المائدة ١٧

أُحْسِبُ أن البطالة النفسية ، والتطاول الرديء من وراء الترف العقلي في عالم الكلام

جماعة يوغلون في التنزيه إلى حد التجريد ، وآخرون يبلغون في الإثبات إلى حد التجسيد ، والقرآن الكريم بعيد عن المسلكين ، ونحن لانقبل إلا منهاجه ، ولا نأخذ عقائدنا إلا من توجيهه الحق ، نطلق أو نتوقف وفق ما يريد .

واللطيف أن العلم بعد ارتقائه المعاصر ، يهدى إلى الله بالأسلوب القرآني ، لا بالفكر السطحي ، ولا بالتعمق التائه ، وقد تدبرت كتابات علماء الكون والحياة فوجدتهم استدلوا بالملكوت على صاحبه ، وعنت وجوههم أمام عظمتهم ، ثم استيقنوا بعد ذلك من عجزهم عن اكتناه ذاته ، فتوقفوا مبهورين ، ولو وُضعت تحاه أعينهم آيات القرآن الكريم لقالوا : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾^(٤٣) هدا ما نريد أن نقول ، ولكننا لا نعرف

وتعابيرهم تدل على وحدة الشهد : وحدة الوجود ! فهم عالمون بأن المخلوق غير الخالق ، وأن العالم غير مدعه . غير أنهم يفتفون باسم الله عندما ترق أمام أعينهم آياته ، وتتكشف الأسرار عن حكمته وقدرته ! وهذا الهتاف عودة إلى الخالق ، الذي بطقته صاعته بجلالته

قلت لفسى يوما : ما أثقل هذه الأرض ! ما أثقل جبالها وبحارها المحيطة وعبر المحيطة ، وصحاريها وبراريها ... مَنْ يحملها في هذا الفضاء ، ويديرها أمام أمها الشمس ؟ بل من يحمل الشمس نفسها - وهي عضو في محرة هائلة - بين ألفى ألف محرة تسبح في جو السماء ؟ وهمست شفتاي بالجواب : من ؟ إلا الله ! ثم قلت : داك الخاطر بعض ما جاء في السة الشريفة : « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ورنة عرشه ، ومداد كلماته » !!

ورجال العلم الحديث بعداء عن الحدل الفلسفى ، والشقشقة اللفظية ، فإذا نظر أحدهم إلى سبلة قمح ، أو كور درة ، فقال : الله ! فلا يعنى إلا الإشارة بقدرة استحرحت من الطين هذا الحب المتراصّ المضيد ، وأبررته سطورا سطورا كأنه قصيدة رائقة ..

إنه المعنى السهل الذى لحصه الشاعر العربى بقوله :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد...!

وقد رأيت الإحساس بالله سيطر على بعض الكاتبين والعالمين والمتصوفين ، فجاءت عباداتهم تدل على الله ، أكثر مما تدل على العالم ، وسر هذا الاستغراق الحسى أن الله هو وحده مصدر الإيجاد والإمداد ، وأن وجود الأحياء عارضة ممنوحة لهم من الحى القيوم ، وإلا فليس لهم من ذواتهم إلا العدم ، وإذا كان في الأرض والسماء ما يعجب أو يروع ، فالفضل لدى الجلال والإكرام لاغير ، أجل ، فما يكون هذا الغير ؟ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤٤)

ذاك سرّ الصرخات المنكرة ، التى أرسلها ابن عطاء الله السكندرى في وجه أناس لا يرون الله ! منهم ملاحدة ينكرون ويطلبون الدليل على وجوده ! ومنهم أهل دين لا يحسون أنه منهم قريب مع أن منه دقائق قلوبهم ونحات عيونهم يقول اس عطاء الله .

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى أظهر كل شيء ...

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى ظهر بكل شيء^(٤٥)

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الذى ظهر في كل شيء^(٤٦)

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الظاهر قبل وجود كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو أظهر من كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو الواحد الذى ليس معه شيء^(٤٧)

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ وهو أقرب إليك من كل شيء

كيف يتصور أن يحجبه شيء ؟ ولولاه ما كان وجود شيء

شتان بين من يستدل به ، وبين من يستدل عليه ! المستدل به عرف الحق

(٤٤) سورة الحديد ٣ (٤٥)، (٤٦) آياته ودلائل حلاله وخماله هى التى ترى وتدل عليه .

(٤٧) الوجود واحد وإن كانت الموجودات كثيرة ، فالأشياء لا تقوم إلا برها والوجود لها إلا منه ذلك ، وبلغت النظر إلى ما قرأه أنما عن وحدة الشهود

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تشد أولى الألباب إلى من له الخلق والأمر ، وتزجرهم عن الاحتباس فى المادة الهامدة وسيان أمرها من العدم إلى حيز « كل شيء هالك إلا وجهه »

لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ! والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ،
والإفتمى غاب حتى يُستدل عليه ؟ ، ومتى بُعِدَ حتى تكون الآثار هى التى
توصل إليه ؟

فى فجر النهضة العلمية الحديثة فى بلادنا أَلَفَ الشيخ محمد عبده «رسالة
التوحيد» اجتهد الرجل فيها أن يعرض علم العقيدة فى ثوب جديد ، فابتعد عن
الجدل ، وأنى أن يلزم واحدا من المتكلمين ، وعدّهم جميعا إخوة يبحثون عن
الحق ، ثم شرح القضايا الأصيلة فى ديننا شرحاً حسناً ، وقدم لها خلاصات
نقية ..

وتألفت بعد «رسالة التوحيد» كتب فى العقيدة بَنَتْ ولم تهدم وجمعت ولم
تفرق ، وتحاشت الماضى الذى قسمنا فى المجال الثقافى والسياسى فرقا يشقى بها
المؤمنون ويسعد بها الكافرون ، وأسهمت أنا فى هذا الميدان بكتايب عقيدة المسلم
الذى أَلَفْتَهُ من ٣٥ سنة تقريباً ، وأرجوا أن ينفع الله به

لكن هواة الشقاق يأبون إلا استحياء الخلاف ، وما أغنانا عنه !
إن ثقافتنا الإسلامية كلها عندما تعرض الآن ينبغى أن تغربل بدقة ، حتى
يتساقط التافه فى صمت ، ويبقى ما ينفع الناس ... ونحمد الله أن بقى كتابه
محفوظاً ، وأن بقيت السنة محروسة بالعلماء الثقاة والفقهاء الأمناء.

ونصح إخواننا العاملين تحت راية «السلفية» أن يَقْدُرُوا شرف هذه الراية ،
وألا يقلبوا الأمور لأمة تريد النهوض ، وأن يتركوا قصة التكفير والتفسيق لعباد
الله ، فإنهم يهدمون أنفسهم قبل أن يهدموا غيرهم ...

حد أدنى لثقافة المسلم...

لو كان الإسلام فلسفه أخلاقية لأمكن أن يهض به بعض الوعاط والمربين !
ولو كان نظاماً سياسياً فقط ، لأمكن أن يقوم به حزب من الأحزاب الراغبة
في الحكم !

إنه مجموع الأمرين ! والتعريف به والبقاء عليه لا يتم إلا بصياغة علمية شاملة !
بيد أن علم الكلام ، وعلوم العقيدة إجمالاً لم تحسن هذه الصياغة ، أو لم تقدم
لها خلاصة نقية ! فهناك بحث هل العمل شرط أو شطر في الإيمان ؟ أو لا شرط
ولا شطر ؟ وهناك قول عجيب في أن الإسلام قد ينفك عن الإيمان ! وإني
لأستعرب كيف يذكر قول بأن الإسلام - وهو دين الله - يمكن ألا يكون معه
إيمان ؟

وهناك تضايًا حُشِيَتْ بها الأذهان ، وهي فضول أو ديول يجب قطعها ... مثل
الاستثناء في الإيمان ! الحرام رزق ! المقتول ميت بأجله ! إنها قضايا تافهة ، وكان
أولى بالعرض الجيد علاقة المسلم بالله كما وصفها القرآن الكريم ، فإن هذه العلاقة
تكوّن من جملة أخلاق يكون الإيمان صفرًا بدونها ، ولا أدري من يهتم بها إذا لم
يهتم بها علماء العقيدة ؟ إنها تُركت للأسف للمؤلفين في التصوف على أنها مراحل
الطريق ، أو للمتحدثين في الوعظ على أنها من مرفقات القلوب ، ومكانها الأول
كما قلنا في علم التوحيد إذ لا ديس مع فقدانها ...

١ - خشية الله

فحشية الله من عاصر الإيمان الأولى ، وتذكر ذلك من آيات شتى وثقت
الصلة بن الخوف والإيمان. قال تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّمَا
هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴾^(٤٨) فالشعور بالرهبة يغمر الفؤاد من الله وحده !

دار الصحوة... وهذا الكتاب

لم تقم دار الصحوة لتكون مجرد دار نشر تجارية ، بل قامت لتحقيق هدفاً إسلامياً بالدرجة الأولى... وهذا الهدف - بإيجاز - هو الأخذ بيد المسلمين لفهم الإسلام فهماً حقيقياً نابعاً من مصادره الأصلية... وفهم التحديات التي تواجه المسلمين...
وفهم الأسلوب الأمثل والأقوم في مواجهة التحديات .

وأخيراً... لقد قامت دار الصحوة لترفع من مستوى الإنسان المسلم روحياً وثقافياً... حتى يكون منسوب المسلم الفكري والأخلاق أعلى من منسوب الحضارة الحديثة... وبالتالي يكون المسلم أهلاً لقيادة الحضارة وفق سيرة الله الكونية التي لا تمنح قيادة سفينة الحق إلا للراشدين النابهين المخلصين... ولن تمنحها أبداً لغيرهم...

وهذا الكتاب... خطوة من خطوات دار الصحوة... في هذا الطريق .

دار الصحوة

للنشر والتوزيع

٧ ش السراي - المنيل - القاهرة

ت وفاكس : ٩٨٧٩٢٤

حدائق حلوان . ت ٣٧٤٠٠٧١